هِرْمان مِلْفِل



بارتلبي النَّسَّاخ

ترجمة وتقديم
زوينة آل تويّه



هِرْمَان مِلْڤِل

بـــارتلبي النَّسَّاخ

« قصة قصيرة »

ترجمة

زوينة آل تويّه

بارتلبي النسّاخ

هِرْمَان مِلْفِل

ترجمة: زوينة آل تويّه

القيـــاس: ١٤,٥ × ٢١,٥

عدد الصفحات: ١٠٤

١٠٠٠/٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ



سورية . دمشق . ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٢٣١٤٥١١ ١١ ٩٦٣ +

هاتـــف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣+

ninawa@scs-net.org E-mail:
www.ninawa.org

العمليات الفنية:

التدقيق اللغوي: سالم آل تويّه

تصميم الغلاف: الفنانة التشكيلية بدور الريامي

صورة الغلاف: المصوّر الفوتوغرافي عبد المنعم الحسني

القسم الفني - دار نينوى

العنوان الأصلي للكتاب

Bartleby the Scrivener

شُكْر

أتقدَّم بخالص الشُّكر وعميق التقدير إلى الأستاذ الفاضل الدكتور كامران راستِغار Kamran Rastegar –أستاذ الأدب العربي والفارسي بجامعة إدنبرة سابقاً، والذي يعمل حاليًّاً أستاذاً في قسم اللغات الألمانية والروسية والآسيوية وآدابها في جامعة تَفْتس (Tufts) الأمريكية– لِما قدَّمه لي من عونٍ كبيرٍ في فهم ما أشكل عليَّ في النص الأصلي في أثناء دراستي في إدنبرة في عام ٢٠٠٧م عندما كان مشرفاً أكاديمياً على رسالتي في الماجستير وحتى انتهائي كليَّةً من الترجمة في عام ٢٠٠٩م، حيث ساعدني شرحُهُ المستفيض في الاقتراب كثيرًا مما يرمي إليه ملقل في كثير من العبارات الطويلة والمعقّدة، وكذلك في استعاراته وصيغه المجازية المحمَّلة بالسخرية والمبالغة.

كما أتوجَّه بجزيل الشُّكر إلى الكاتب سالم آل تويّه؛ على مجهودِهِ وصبرِهِ الكبيرين في تدقيق النصّ في ترجمته العربية لغةً وصياغةً، متجشِّما عناء البحث عن أصول كثيرٍ من المفردات العربية في المعاجم العربية الهامَّة، حيث نبَّهني ذلك إلى تجنُّبِ كثيرٍ من الاستخدامات الشائعة الخاطئة.

وأخيرا أشكر كلَّ من قرأ بارتلبي بصبرٍ من الأصدقاء والمقرَّبين حتى بلغ النص صياغته الأخيرة، وأعتبر ذلك مؤازرة نفسية منهم جديرة بالذِّكر والتقدير.

زوينة

"لِمَ يُحاوِلُ الأحياءُ جميعاً أنْ يُخرِسوا الأمواتَ جميعاً؟"

موبي ديك(*)

* تأليف هرمان ملفل، ترجمة الدكتور إحسان عباس

تقديم

بالرغم من أنه كتب العديد من الروايات والقصص والقصائد والمقالات، اشتهر ملفل في ثقافتنا العربية برائعته الملحميَّة "موبي ديك". ولم تكن روايتاه الأوليان: "تايبي ***Typee***" (١٨٤٦)، و"أومو ***Omoo***" (١٨٤٧)، أقلّ أهمية من موبي ديك التي كتبها في عام ١٨٥١م، وكلها مستوحاة من رحلاته ومغامراته البحرية في التَّحويت (صيد الحيتان)، ولكن شهرة الأخيرة في الثقافة العربية طغت على كتاباته الأخرى، لأنه لم يصلنا - من أعماله عبر الترجمة - سواها. وحتى على مستوى العالم لم تُبعَثْ أعمال ملفل من مواتها إلا بعد مدة طويلة من وفاته عام ١٨٩١م، حيث لاقت اهتماماً كبيراً من قبل القُرَّاء والنقاد، وأصبحت موبي ديك واحدة من أهم الروايات العالميَّة.

أما بالنسبة إلى أعماله القصصية فقد كانت مجلة پونتام الشهرية تنشر له مجموعة من القصص حملت عنوان " The Piazza". وضمن هذه المجموعة كانت القصة القصيرة التي ترجمتُها في هذا الكتاب: "بارتلبي النَّسَّاخ"، والتي كتبها عام ١٨٥٣م.

جاءت فكرة ترجمة هذه القصة تحديداً بعد سنوات عديدة من قراءتي لها عندما كنت طالبة بكالوريوس في سنتي الأخيرة في الجامعة عام ١٩٩٨م. هناك تهيَّأت لي الفرصة لدراستها ومشاهدتها في شريط ڤيديو في أثناء إحدى محاضرات الأدب الإنجليزي مع الدكتور ستون. وظلت أحداثها تتعقّب تفكيري مدة طويلة، وكنت أعود إليها بين الحين والآخر علّني أظفر بذاك الشيء الغامض الذي يجذبني إليها. كان شبح بارتلبي الهزيل يَشْخَصُ أمامي كلّما خَبِرْتُ موقفاً إنسانيّاً بائساً من حولي، وكأنه يقول لي بنبرته الهادئة الخالية من الحياة: "أُفَضِّل ألا أتركك". وقررت منذ سنوات قليلة أن أترجمها، بالرغم مما كانت تحمله هذه الفكرة من رعب بالنسبة إليّ، خاصة أنني كنت في خطاي الأولى في الترجمة، كما أن صعوبة لغة ملڤل ذات اللهجة النّيويوركيَّة في كثير من المواضع أوقعتني في حيرة شديدة، فأُسْقِطَ في يدي وتوقفت عن الترجمة بعد أن كنت قد بدأت فيها. وفكّرت أن

أترك بارتلبي وشأنه وأنصرف إلى الحياة والمستقبل، لأن بارتلبي صار إلى الموت والماضي، لكنه أبى أن يتركني، فعاد الشبح البارتلبيُّ يتلصَّص على دنياي بلا رحمة. وحين شددت الرِّحال إلى البلاد الباردة في عام ٢٠٠٧م للدراسة اكتشفت أنني أحمله معي، ولا يزال يُفضِّل ألا يتركني. كنت دائماً أراه إمَّا مقعيًّا في وضع جنينيٍّ على الأرصفة، أو واقفاً بلا حِراك ووجهه يُحدِّق في الجدران الحالكة التي غطَّاها الدُّخان في المدينة الباردة العتيقة. وبعد حيرة وتلبك شديدين أزمعتُ على أن أُحدِّق بتحدٍّ في عيني بارتلبي، وأقرأ فيهما ذلك الشحوب الآدميَّ الذي لا يُطَاق. عدت إلى الترجمة القديمة، وفكرت أن أضع بارتلبي نصب عينيَّ في دراستي، خاصة أنَّني وجدت بيئة ثريَّةٍ بشتَّى المراجع المتعلقة بملڤل وبطله بارتلبي. شيئاً فشيئاً صرت وبارتلبي متآلفين نوعاً ما، وانخرطت في الترجمة بجهد مضنٍ وممتع في الآن ذاته. واضطررت إلى قصّ الكثير من الفقرات نظراً إلى أن شرط تقديم الدراسة يتطلب الالتزام بعدد معين من الكلمات. وهكذا أنهيت تلك الترجمة وأنا أحس بارتياح كبير، ظانَّة أنني أفلتُّ أخيراً من حدقتي بارتلبي الشَّاحبتين، وأنني أوفيته حقَّه. لكنْ لا، لم يكنِ الأمر سهلاً أبداً. عاد بي الجناح إلى الوطن حرَّة خفيفة من عبء الدراسة

ولكن ليس من... بارتلبي. بدأ يُزعجني في كل شيء، حتى عندما أنقر مفاتيح الكيبورد، أو أقرأ كتاباً، أو أتلوّى من ألم الصُّداع النِّصفيِّ، أو عندما أرغب في الجلوس والتأمل بيني وبين حالي. كان الأمر غريباً جدّاً! هل تراني نبشت ماضياً ما كان ينبغي له أن يُنبَش؟ ولكن ماذا كان عساني أفعل وهو يُلاحِقُني في صحوي ونومي؟ ظننت أنه يريد مني أن أخبر العالم عنه، عن معاناته وبؤسه وموته. لعلّه كان يتوسَّل مجداً بعد موته وهو يُطارِد الأحياء، إذ إنني أحس أنه يتعقَّب كثيرين. وعندما أفكر في ذلك يتسرَّب إليَّ بعض الاطمئنان أنني لست في المعاناة وحدي. حسنٌ يا بارتلبي، أنت وأنا ندّان، ولأنك تُفضِّل ألا تتركني فأنا أيضاً أُفضِّل ألا أتركك حتى ترتاح في مهجعك وأرتاح في دنياي. وهكذا انكببت على ترجمة القصة بأكملها، وصرت وبارتلبي متآلفين إلى حدٍّ كبير، اقتربت منه، ولمست ألمه.

كان الألم بالنسبة إليَّ ألمين: معايشة ألم بارتلبي وكذلك ألم الترجمة؛ إذ إنني لست على دراية كافية بلغة ملفل المُعقَّدة ومفرداته الغامضة، وكان من الضروري جدّاً استشارة مصادر عدَّة كالقواميس (خاصة تلك التي تُعنى بأصول المفردات وتواريخها، وباللَّهجات التي وجدت بعضها متوفراً في القواميس

الإنجليزية)، والمعاجم العربية والكتب والإنترنت والمقالات التي كُتبتْ حول القصة إلى جانب استشارة المتخصِّصين والمهتمِّين. وقد جاء سرد ملڤل مشحوناً بالإحالات إلى الرَّمز والاستعارة والأسطورة والتاريخ والإنجيل، إضافة إلى العبارات الطويلة جدّاً والممتلئة بالجمل الاعتراضية، والتقديم والتأخير، والصيغ المتناقضة، وصيغ النَّفي لغرض الإثبات، وعلامات الترقيم المختلفة، ناهيك عن استخدامه مفرداتٍ بسيطةً ومعتادةً في سياق يبدو معقداً يجعل ترجمته معاناة ذهنية ونفسية مضاعفة. غير أن هذا الامتلاء السَّرديَّ جاء معزِّزاً جدّاً للطريقة المبالِغة والساخرة في وصف الأماكن والشخصيات وتكثيف التأمل والانطباع الشخصي لدى السارد، الأمر الذي جعل السرد غنيّاً وأخّاذاً. وسوف يُلاحظ القارئ تركُّز عنصر المبالغة طوال سرد المحامي حكاية بارتلبي، فتبدو حكايةَ مبالَغةٍ بامتياز. ولكي أوضح أكثر ما أقصد بالمبالغة سأورد بعض الأمثلة على استخدامات ملڤل اللغوية للمفردات إلى جانب ألقاب الشخصيات الأخرى في القصة، وكيف حاولتِ التَّرجمةُ الاقتراب من عنصر المبالَغة في كل ذلك. ولن أتطرَّق إلى استخدامه للأسطورة والتاريخ والكتاب المقدَّس، لأن الهوامش تفي بإيضاحها وشرحها للقارئ.

أما بالنسبة إلى المفردات، خاصة المتكررة منها، مثل مفردة "النَّسَّاخ"، وهي صيغة مبالَغة لمفردة "ناسخ"، وجمعها "ناسخون" أو "نُسَّاخ"، فقد ارتأيت استخدام "نَسَّاخ" للدَّلالة على كثرة انكباب بارتلبي ليلاً ونهاراً على نسخ الوثائق القانونية، خلافاً لتيركي ونيبرز اللَّذين لا يقضيان اليوم كله في النسخ. وتتكرَّر هذه المفردة كثيراً بدءًا من العنوان الذي كان وحدَه إشكالية في أثناء الترجمة، فبينما يستخدم السارد مفردة scrivener في العنوان، وطَوال حديثه عن بارتلبي تحديداً، نجده يستخدم نفس المفردة مع الثلاثة الآخرين إلى جانب نعتهم بمفردتين أخريين: Law-Copyists, clerks، ناسخو الوثائق القانونية، كُتَّاب. وتبدو إشكالية ترجمة مفردة scrivener من عِدَّة جوانب؛ فبالرجوع إلى أكثر من قاموس شامل (إنجليزي-إنجليزي، إنجليزي-عربي، عربي-إنجليزي)، وكذلك بعض قواميس المصطلحات القانونيَّة، تبيَّن لي أن هذه المفردة تحتمل معنيين، وحسب المورد الأكبر فإن المعنى الأول يضم: الكاتب، النَّاسخ. أمَّا المعنى الثاني فله دلالة قانونية، أي الكاتب العدْل. وهنالك فرق كبير بين المعنيين، حيث إن الأول يشير إلى أيِّ كاتب يقوم بنسخ المعلومات ونقلها، أمَّا الثاني فيتضمن كاتبا متخصصاً في توثيق العقود وصكوك البيع

وقد يكون محامياً. بالنظر إلى المعنيين السابقين يمكننا نعت بارتلبي بالكاتب أو الناسخ على الرغم من أنه يعمل في مكتب محاماة، لكننا نفهم من سياق السرد أن بارتلبي لا يقوم بأيِّ عمل قانونيٍّ، إنه فقط ينسخ ويُقلِّد ويُكرِّر كتابة ما يكتبه المحامي في الورقة الأصل. ولمَّا كان عمل الناسخ مضجراً وبعيداً كل البعد عن الإبداع والتفكير، ولمَّا كان بارتلبي يُمارِس عمليَّة النَّسخ إلى حدٍّ مبالغ فيه، موصلاً ليله بنهاره، ولمَّا كان عمله هذا لا يتعدَّى نقل الوثائق القانونية التي لا رأي له فيها، فكَّرت أن مفردة "نسَّاخ" تليق به أكثر، ولا علاقة له بمهمة الكاتب العدل أو العموميّ. يمكن استشفاف ذلك أيضاً من المترادفات الأخرى التي يستخدمها السَّارد في نعت العاملين لديه، فهو تارة يُسمِّيهم الكُتَّاب clerks، وتارة ناسخي الوثائق القانونية، وأخرى النَّاسخين.

ثمَّة مفردة أخرى يستخدمها السَّارد بشكل مبالغ فيه، وهي: submission ضمن العبارة: .with submission sir. وهذه العبارة يستخدمها تيركي كثيراً كلما خاطب سيده المحامي، دلالةً على احترام مبالغ فيه مصحوب بانحناءة مبالغ فيها أيضاً. ويصف لنا المحامي تيركي على نحو مبالغ فيه أيضاً وكأنَّه يتحدَّث عن ديك

روميٌّ حقيقيٌّ، ولذلك لقبه أصدقاؤه بتيركي. يخبرنا المحامي كذلك بأن تيركي يبالغ في تناول الكحول ويتحوَّل إلى كائن لا يُطاق. لجميع هذه الأسباب فكَّرت بترجمة العبارة على هذا النحو: احتراماتيَ سيِّدي. أظن أن مفردة "احتراماتيَ" تتَّسم بالمبالغة، كما أنها أقرب إلى اللَّهجة الدَّارجة لو أخذنا في عين الاعتبار استخدام ملڤل بعضاً من اللُّغة العاميَّة في سرده.

حملت شخصيَّات النَّاسخين الثلاثة (تيركي، نيپرز، جنجر نَتْ) ألقاباً قد تبدو غريبة للقارئ، لكن ملڤل يستخدمها في سياق المفردات النيويوركيَّة السَّائدة آنذاك، وأيضاً ضمن السياق الذي تفرضه أوصاف وسلوك شخصياته. وإذا ما حاولنا تحليل كل لقب ستتكشَّف أمامنا دلالات عميقة تُساعِدُنا في فهم أسباب استخدام ملڤل لها. وبالنظر إلى هذه المفردات مجرَّدةً من سياقها تُخبِرُنا القواميس أن تيركي هو الاسم الإنجليزي لطائر الديك الرومي، وأن مفردة نيبرز تشير إلى أداة القرَّاضة أو الكمَّاشة، بينما يتكون اللقب جنجر نَتْ من كلمتين: الأولى جنجر وتعني الزنجبيل، والثانية نَتْ وتعني البندق، وجميع هذه المعاني تُمثِّل المعاني القاموسية الرئيسة لهذه المفردات، ولكنها تفيد كثيراً في فهم سلوك كل شخصية حسب التفاصيل الواردة في السرد، فإذا

ربطنا بين مواصفات شخصية تيركي ومواصفات طـــائر الـــدِّيك الرومي لوجدنا تشابهاً كبيراً بينهما، فالديك الرومي يتغير لـــون وجهه إلى ظلال الأحمر والأبيض والأزرق عندما ينفعل أو يُستثار، وتيركي حسب وصف السارد يصبح وجهه متـــورِّداً ومتوهجـــاً عندما يفرط في تناول الكحول في منتصف النهار في أثناء فتـــرة غدائه، ويغدو من السهل إغضابه. كما أنه ببدانته وضيق نفســـه يشبه طائر الديك الرومي البدين الذي لا يســـتطيع الطـــيران إلا لمسافات قصيرة. يشير قاموس المـــورد الأكـــبر إلى أن مفـــردة "تيركي" تُطلَق أيضاً على الشخص الأحمق، ولم يكن تيركي ببعيد عن ذلك أبداً حينما يتناول الكحول. كما يذهب أحد النُّقَّاد إلى أنَّها مفردة عامِّيَّة شائعة في نيويورك كانت تُطلَق على السِّكِّير في القرن التاسع عشر(*).

أما نيبرز فيكون عصبيّاً جدّاً في الصباح ويَصُرُّ بأسنانه بصوت مسموع، وهذا الوصف يقترب إلى حدٍّ ما من الكمَّاشة حين تُطبِق على شيء ما. ويُخبِرُنا أحد القواميس(*) بأن مفردة

(*) **Bergmann, Hans. *Turkey on his Back: Bartleby and New York Words*. George Mason University. http://web.ku.edu/~zeke/bartleby/bergmann.html**

(*) **Partridge, Eric. 2002. (ed) Beale, Paul. *A Dictionary of Slang and Unconventional English*. 8th edition. Frome & London.**

"نيبرز" تعني اللّصَّ، وعلى الأخصِّ النَّشَّال، وتُستخدم في لغة "الأُرْغة"(**). وبالرغم من أن هذا المعنى لا يشير مباشرة إلى شخصية نيبرز، إلا أن الناقد هانز بيرغمان يرى أن هذه المفردة تتعلق بالمعاملات الغامضة والمشبوهة التي يقوم بها نيبرز حين كان يتلقَّى "زياراتٍ من رجالٍ غامضي المظهر بسُتَرٍ رثّة، ممن كان يدعوهم موكّليه"، وذلك يعني على نحو ما أن نيپرز ينتشل دور المحامي ويسرقه ليقوم بتخليص معاملات غامضة كهذه.

وبالنسبة لجنجر نَتْ يخبرنا المحامي أن لقبه يقترن بكعك البندق بالزَّنجبيل الذي كان يبتاعه لتيركي ونيپرز.

اعتمدت في هذه الترجمة نفس المصدر الذي كنَّا ندرسه في الجامعة في عام ١٩٩٨م، وهو عبارة عن كتاب ضخم يشمل منتقيات من القصص القصيرة لأشهر الكتَّاب العالميِّين، واسم الكتاب: *Fiction 100, An Anthology of Short Stories*. وضعه جيمس هـ. بيكرينج James H. Pickering. وبالرغم من توفر القصة في مواقع كثيرة على شبكة الإنترنت إلا أنني التزمت بهذه الأنطولوجيا لسببين؛ أولا، لأنني وجدت القصة أكثر دقّة في

(**) لغة خاصة أو عامية تصطنعها فئة أو طبقة اجتماعية أو أهل حرفة معينة (كاللصوص إلخ.). (المورد الأكبر).

النقل، لاحتوائها على علامات الترقيم المختلفة التي يستخدمها ملفل وعلى نحوٍ معقّد يدفع إلى البحث في كيفية استخدام كتّاب القرن التاسع عشر علامات الترقيم، خاصة أن استخدام ملفل لها يبدو أحيانا غريبا وشبيها بما كان يقوم به الكتّاب الأكثر قِدَما منه حين يكثرون من استخدام الشرطة مثلا في مواضع مختلفة ولأغراض مختلفة. وفي الترجمة، لم أتمكّن من الإبقاء على الكثير من الشُّرَط لأنها تخلّ بالمعنى كثيرا وتشوِّش القراءة، فاستعضتُ عنها بالفاصلة. وبالإضافة إلى ذلك، احتفظتْ الترجمة بالمفردات المائلة كما وردت في الأصل، حرصا على غرض التوكيد. وثانيا، وجدتُّ أن واضع هذه الأنطولوجيا يحرص على توضيح بعض ما قد يُشْكِلُ على القارئ ويضعه في الهوامش، وبدوري قمت أيضاً بترجمة هذه الهوامش والإشارة إلى الاسم المختصر لواضع الكتاب، أي: (JHP). كما حاولت أن أوضح للقارئ بعض الإحالات من خلال ما أكتبه في الهامش، إضافة إلى توثيق المراجع المستخدمة كالإنجيل والقواميس.

وأخيراً تبقى هذه الترجمة اجتهاداً شخصيّاً قد يتّفق معه بعضهم وقد يختلف معه بعضهم الآخر، إلا أنَّ الأهمية تبرز في إمكانات ترجمة النص الأصلي برؤى وزوايا مختلفة.

أضع هذه الترجمة بين يدي القارئ أملاً في أن تكون إضافة جيِّدةً إلى الأدب المترجم (إلى العربية)، وإلى موقع ملفِّل في الثقافة العربية خصوصاً.

بـــارتلبي النَّسَّاخ

هِرْمَان مِلْڤِل

أنا رجلٌ كهلٌ إلى حدٍّ ما، وقد ساقتني طبيعة عملي في السنوات الثلاثين الأخيرة إلى أكثر من مجرد اتصال عاديٍّ بمن قد يبدون مجموعة مثيرة للاهتمام وفريدة بعض الشيء من الرجال الذين، حتى الآن، لم يُكْتَبْ عنهم شيءٌ أعرفه- أعني، ناسخي الوثائق القانونية أو الناسخين، لقد عرفت الكثيرين منهم، مهنيّاً وبصورة شخصية، وإنني، إذا سمحتم، أستطيع أن أروي قصصاً مختلفة قد يبتسم لها سادةٌ لطفاءُ، وقد تبكي من أجلها نفوس جيَّاشة. لكنني أتنازل عن سِيَر جميع الناسخين الآخرين من أجل سرد مقاطع قليلة من حياة بارتلبي Bartleby، أعْجَبُ من رأيتُ أو سمعتُ عنه. على الرَّغم من أنني قد أكتب الحياة الكاملة للناسخين الآخرين، إلا أنه لا شيء من هذا القبيل يمكن فعله بالنسبة إلى بارتلبي. أعتقد أنه ما من مادة توجد في سيرة كاملة ومُرْضِية عن هذا الرجل. إن ذلك خسارة للأدب مُتعذِّرٌ

تعويضُها. كان بارتلبي أحد تلك الكائنات التي لا شيء فيها ممكنٌ التَّحقُّقُ منه، إلا من المصادر الأصلية التي تُعْتَبَرُ في حالتـه قليلـةً جدّاً. إن ما رأته عيناي الذّاهلتان من بارتلبي هو كل ما أعرفـه عنه، ما عدا -في الواقع- تقريراً واحـداً غامضـاً سيتَّضـح في الخاتمة.

قبل تقديم النَّسَّاخ، كما ظهر لي أوَّل وهلة، مـن اللائـق أن أذكر شيئاً عنِّي، عن العاملين لديَّ، أعمالي، مكتبي، والمحيطِ العَامِّ، لأنَّ بعض هذا الوصف لا غنى عنه من أجل فهمٍ كافٍ للشخصية الرئيسة التي أنا بصدد تقديمها. في المقام الأوَّل: أنا رجل امتلأ منذ شبابه بإيمان عميق بأن أسهلَ طرق الحياة أفضلُها. ومن ثمَّ، علـى الرغم من انتمائي إلى أهل مهنة يُضرَب بهم المثـل في النشـاط والعصبية وحتى العنف أحياناً، فإنَّني لم ألق شيئاً من هـذا يغـزو سلامي. أنا أحد أولئك المحامين غير الطموحين الذين لم يترافعوا في قضية قطُّ، ولم ينتزعوا إطراءً شعبيّاً بأيَّة طريقـة، غـير أنـني في السُّكون المعتدل لمأوىً مريحٍ أقوم بعملٍ مريحٍ بـين السَّـندات والرِّهانات وصكوك التمليك الخاصة بالأثرياء. جميع من يعـرفني يعتبرني رجلاً آمناً على نحو بارز. لم يتردَّدِ الرَّاحل جون جاكوب

أَستور[1] John Jacob Astor –شخصية بارزة موهوبة بحماسةٍ شعرية– في إعلان ميزتيَ الأولى الرائعة: الحكمة، ثم الثانية: النظام. لا أقول ذلك عن غرور، لكنني ببساطة أسجل حقيقةَ أنَّني لم أكن غيرَ موظَّفٍ في مهنتي من قِبَلِ الرَّاحل جون جاكوب أَستور، اسم أعترف أنني أحب ترديده؛ ذلك أن له وقعاً صوتيّاً مستديراً ومُكوَّراً، ويرنُّ مثل سبيكة ذهبية. سأضيف بصراحة أنني لم أكن غافلاً عنِ الرَّأيِ السَّديد للراحل جون جاكوب أَستور.

في وقتٍ ما، سابقٍ للفترة التي بدأتْ فيها هذه القصة القصيرة، كان عملي يتنامى بشكل كبير. وفي ولاية نيويورك كانت الوظيفة القديمة، ماستر إن تشانسري[2] Master in

(١) جون جاكوب أَستور (١٧٦٣-١٨٤٨): مهاجر ألماني المولد، حقّق ثروة طائلة من استثماراته في العقارات في نيويورك، ومن سيطرته الاحتكارية على تجارة الفرو في غرب أمريكا. كان أَستور قُبيل وفاته أغنى رجل في الولايات المتحدة. (JHP). قضى أَستور بقية حياته راعياً للأدباء ومن بينهم إدغار ألان بو، وأسس مكتبة أستور. (المترجمة، بتصرف من موقع ويكيبيديا).

(٢) وظيفة قاضي القضاة (في المحكمة العليا) يتم فيها التعامل مع قرارات تتعلق بقضايا العدالة وليس القانون العام (القضايا التي يصفها النظام الأساسي)، وكثيراً ما يتم التوصل إلى هذه القرارات من خلال التفاوض بين الطرفين المتخاصمين ثم يُدفَع للقاضي نفسه مبلغاً = بغضِّ النظر عمَّن "يكسب" القضية. وقد أُلغيت وظيفة ماستر إن تشانسري في عام ١٨٤٦م من قبل "الدستور الجديد". (JHP).

Chancery، التي لم تعد موجودة الآن، كانت ممنوحةً لي. لم يكن العمل فيها مُجهِداً جدّاً، لكنه كان مجزياً بشكل مُرْضٍ. إنني نادراً ما أفقد أعصابي، وأندر من ذلك بكثير أن أنغمس في سخط خطير بسبب الأخطاء والانتهاكات، ولكن يجب أن يُسمَح لي بأن أكون متهوراً هنا، وأعلن أنني أعتبر الإلغاء المفاجئ العنيفَ لوظيفة ماستر إن تشانسري من قبل الدستور الجديد فعلاً مُنجَزاً قبل أوانه؛ نظراً لأنني اعتمدت على فرصة العيش من الأرباح، في حين إنني استلمت أرباح سنوات قليلة وقصيرة فقط. ولكن هذا ما حدث على أيّة حال.

كان مكتبي يقع في الطابق العلوي، رقم ----[3] في شارع وول ستريت[4] Wall Street. وتطلّ النافذة عند أحد جانبيه على حائط أبيض، بينما ثمّة ضوء وفير يمتد من الكُوَّة السماوية بين النافذة والحائط مخترقاً المبنى من أعلاه إلى أسفله.

يمكن اعتبار هذا المشهد تَفِهاً بالأحرى وليس خلاف ذلك، ومفتقراً إلى ما يسميه رسَّامو المناظر الطبيعية "حياة". لكن إذا

---

(٣) الرقم غير مذكور في النص الأصلي. (المترجمة).

(٤) شارع يقع قرب الطرف السفلي من جزيرة مَنْهاتن، وكان هذا الشارع في عهد ملفل المركز التجاري والاقتصادي لمدينة نيويورك. (JHP).

كان الأمر كذلك فإن المشهد من الجانب الآخر لمكتبي يُقدِّم شيئاً مختلفاً على الأقلّ إن لم يكن هناك ما هو أكثر، ففي تلك الجهة تُطِلُّ نافذةُ مكتبي على مشهدٍ لا يحجبُ النَّظرَ إلى جدار قِرميديٌّ شامخٍ اسودَّ بفعل الزمن والظل المستديم، أي أنه جدارٌ لا يستلزم منظاراً ليُظْهِرَ جمالَه المُندسَّ، لكنه، ومن أجل جميع من يعانون من قِصَرٍ في النظر، دُفِعَ بمقدار عشر أقدام قريباً من الألواح الزجاجية لنافذة مكتبي. وبسبب العلو الكبير للمباني المحيطة، ووجود مكتبي في الطابق الثاني، فإن الفسحة بين هذا الجدار وجدار مكتبي تشبه كثيراً بئراً مربَّعةً هائلة.

في الفترة التي سبقت مجيء بارتلبي مباشرة كان في خدمتي شخصان يعملان ناسخيْن وصبيٌّ واعدٌ يعمل ساعياً للمكتب: الأول تيركِي **Turkey**، والثاني نيپرز **Nippers**، والثالث جِنْجَرْ نَتْ **Ginger Nut**. قد تبدو هذه أسماءً لا يمكن عادةً إيجادُ نظير لها في دليل العناوين. في الحقيقة كانت ألقاباً مُنحَتْ بشكل مشترك بين الناسخين الثلاثة، واعتُبرَت مُعبِّرةً عن شخوصهم أو صفاقم الشخصية. كان تيركي إنجليزيّاً قصيراً ذا نَفَسٍ ضيِّقٍ بسبب بدانته، في عمري تقريبا- أيْ أنه ليس ببعيد عن الستين. في الصباح يمكن للمرء أن يقول إنَّ وجهه يكون مُتورِّداً، ولكنه

بعد الثانية عشرة، منتصف النهار -ساعة غدائه- يتّقد مثل موقد ممتلئ بفحم عيد الميلاد، ويستمر في اتّقاده -ولكن، إذا جاز التعبير، مع خفوتٍ تدريجيٍّ- حتى السادسة مساء أو ما يقرب من ذلك، بعدها لا أعود أرى شيئاً من صاحب الوجه الذي يبلغ ذروته مع طلوع الشمس، ويبدو أنه يغرب معها، ويشرق، يبلغ ذروته ويأفل في اليوم التالي بنفس الانتظام وبتوهُّجٍ لا ينقص. هناك الكثير من المصادفات الفريدة التي عرفتُها خلال حياتي، ليس الأقلّ أهمية بينها حقيقةُ أنه تحديداً عندما كان تيركي يُرسِل أشعته الأكثرَ اكتمالاً من مُحيَّاه الأحمرِ المتوهِّجِ، آنذاك فقط، وأيضاً، في تلك اللحظة الحرجة تبدأ الفترة اليومية التي أعتبر قدراته في العمل خلالها مشوّشة بصورة خطيرة في المتبقي من الأربع والعشرين ساعة. لم يكن كسولاً مطلقاً، ولا مُعادياً للعمل، آنذاك يكون بعيداً عن ذلك. كانت الصعوبة تبدو في أنه يكون ميَّالاً إلى أن يكون نشيطاً تماماً أكثرَ ممّا ينبغي. كان نشاطه تهوُّراً غريباً ومُتأجِّجاً ومضطرباً وطائشاً. وكان يبدو قليل الحذر في غَمْسِ قلمه في محبرته. وجميع لطخاته فوق وثائقي تنسكب هناك بعد الثانية عشرة، منتصف النهار. بالفعل، إنه لا يكون مُهمِلاً فقط، وميَّالاً بشكل سيِّئ إلى إحداث اللّطخات في النهار، بل إنه في

بعض الأيام يذهب إلى حدٍّ أبعد، ويكون بالأحرى ضاجّاً. في مثل هذه الأوقات أيضاً يتّقد وجهُه بمزيد من اللّهب، وكأنَّ فحماً وقَّاداً (cannel coal) قد كُوِّم فوق فحم الأنثراسيت anthracite[٥]. يُحْدِثُ جَلَبَةً بغيضة بكُرسيِّه، يُريق مَرْمَلَةَ الكتابة[٦]، وعندما يُصلِح أقلامَه يُفكّكُها جميعاً قِطَعاً ويُلقيها على الأرض بانفعال فجائيٍّ، يقف ويَتَّكئُ على طاولته ملاكماً أوراقه بطريقة غير لائقة إلى أبعد حدٍّ وتُحزِنُ جدّاً مُشاهدَتُها في رجل كهل مثله. ومع ذلك، ولأنه في كثير من الأحوال كان أكثرَ شخصٍ أهميّةً بالنسبة إليَّ، وكان طَوالَ الوقتِ، قبلَ الثانية عشرة، منتصف النهار، الأكثرَ سرعةً وهدوءاً أيضاً، يُنجز قدْراً كبيراً مِنَ العمل بأسلوب ليس من السهل مضاهاتُه- لجميع هذه الأسباب كنتُ راغباً في التَّغاضي عن غرابة أطواره، لولا أنني حقّاً أعترض بين الفينة والأخرى. لكنني أقوم بذلك بلطف كبير، لأنه على الرغم من كونه في الصباح أكثرَ الرجال تهذيباً بل وأكثرَهم لطفاً

(٥) Cannel coal: فحم حجريٌّ بتيوميني يحترق بسرعة وتوهُّج، بينما فحم الأنثراسيت حجريٌّ قاسٍ، قليل الدخان، بطيء الاحتراق. (المورد الأكبر، منير البعلبكي، ٢٠٠٥، دار العلم للملايين).

(٦) صندوقٌ سطحُه مخزوم يسمح برشِّ الرمل على الحبر الرطب لتجفيفه. (JHP).

ووقاراً يميل بعد الظهر عند إغضابه إلى أن يكون متهوِّراً بلسانه بعض الشيء؛ وفي الحقيقة وقحاً. والآن، تقديراً لخدماته الصباحية كما فعلت، وتصميماً على ألا أخسرها؛ وبالرَّغم من ذلك، وفي الآن ذاته، انزعاجاً من عاداته المهتاجة بعد الثانية عشرة، وكوني رجلَ سلامٍ غير راغبٍ في أن أستثير بتحذيراتي ردوداً سريعة غير لائقة منه، أخذت على عاتقي ظهر يوم سبت (كان يوم السبت سيِّئاً دائماً) أن أُلّمح له بلطف جمّ بأنه ربما الآن، بسبب تقدمه في العمر، قد يكون من الجيد أن يوجز من أعماله، وباختصارٍ أنه لا يحتاج إلى أن يأتيَ إلى مكتبي بعد الثانية عشرة، لكن بعد انتهائه من غدائه من الأفضل له العودة إلى منزله وإراحة نفسه حتى وقت الشَّاي، لكن لا، لقد أصَرَّ على عباداته النهارية. أصبحتْ ملامحه متوهجة بشكل لا يُحتمَل، وهو يؤكد لي بطريقة خطابية –مومئاً بمسطرة طويلة إلى الطرف الآخر من الغرفة– أنه إذا كانت خدماته مفيدة في الصباح، فكيف إذن يمكن الاستغناء عنها بعد الظهر؟

"ولكن اللَّطخات يا تيركي" لَّمحتُ له.

"حقّاً، ولكن احتراماتي سيدي، انظر هذه الشَّعَرَات! إنني أتقدم في العمر. من غير ريب سيدي أن لطخة أو اثنتين أثناء نهار

دافئ ليستا سبباً لإلقاء اللّوم بقسوة على شَعَرات رمادية. الشيخوخة -حتى لو لطّخت الصفحة- جديرة بالاحترام. احتراماتي سيدي، *كلانا* يتقدم في العمر".

كان من الصعب على مشاعري الرقيقة مقاومة هذه المناشدة. ومهما يحدث، عرفتُ أنّه لن يغادر. لذا قررت أن أستبقيه، معتزماً مع ذلك التأكد من أنْ يعمل بعد الظهر في أقل أوراقي أهمية.

نيپرز، الثاني في قائمتي، كان شابّاً ملتحياً وشاحباً، وإجمالا له شكلٌ قُرْصَانيٌّ إلى حدٍّ ما، في الخامسة والعشرين تقريباً. كنتُ دائماً أعتبره ضحيَّة قوتين شرِّيرتين: الطموح وعسر الهضم. كان الطموح يتجلّى في تبرُّم حقيقيٍّ من واجباته كونه مجرد ناسخ، وفي تعدٍّ غيرَ لائقٍ على شؤون مهنية دقيقة، مثل كتابة الوثائق القانونية. أمَّا عسر الهضم فكان يبدو مُنذِراً في شكل نوبات عصبية عَرَضيَّة ونَزَقٍ مُكشِّر، دافعاً الأسنان إلى أن تَصُرَّ صريراً مسموعاً على الأخطاء المرتكبة في النسخ، مُسبِّباً إطلاق لعناتٍ لا داعيَ لها مهموسةٍ عوضاً عن أن تكون ملفوظة، في ذروة العمل، وعلى نحو خاص بسبب الاستياء المستمر من ارتفاع الطاولة حيث يعمل. وعلى الرغم من استدارتها الميكانيكية البارعة جدا، إلا أن نيپرز لا يجد هذه الطاولة تناسبه أبدا. وضع تحتها رقاقات خشبية،

قوالب من مختلف الأنواع، قِطَعاً من الورق المُقوَّى، وأخيراً ذهب إلى أبعد من ذلك ليُجرِّب ضبطاً متقناً بالقِطَع المتبقية من ورق النَّشَّاف المطوي. لكن لم يكن أيٌّ من هذه الاختراعات ليستجيب. وإذا -من أجل إراحة ظهره- وضع غطاء الطاولة عند زاوية حادَّة تماماً قرب ذقنه، وأخذ يكتب هناك مثل رجل يستخدم سطح بيت هولندي شديد الانحدار لطاولته، عندها يعلن أنها أوقفت الدورة الدموية في ذراعيه. وإذا خَفَضَ الطاولة لتصل إلى خاصرته وانحنى فوقها للكتابة فإنه يعاني من ألم شديد في ظهره. باختصار، في حقيقة الأمر إن نيبرز لم يكن يعرف ماذا يريد، أو إنه إنْ أراد شيئاً فهو التخلص من طاولة الناسخ تماماً. كان من بين تجلّيات طموحه المريض ولعُه بتلقي زياراتٍ من رجالٍ غامضي المظهر بسُتَرٍ رثّة، ممن كان يدعوهم موكّليه. حقّاً، لقد كنتُ مدركاً أنّه لم يكن من حين لآخر مهتمّاً بأحد رجالات السياسة في الحيِّ فحسب، لكنه كان بين الفينة والأخرى ينجز أعمالاً بسيطة في محاكم القضاء، ولم يكن مجهولاً في سلالم سجن تومز[٧]

---

(٧) سجن المدينة الذي بُني عام ١٨٣٨، وكان يُطلق عليه اسم مبنى العدالة، ثمّ أعيدت إليه التسمية القديمة "تومز" بسبب منظره الخارجي الكئيب الذي يشبه أهرامات المصريين. (JHP).

Tombs. إن لديَّ سبباً جيِّداً للاعتقاد، مع ذلك، أن الشـــخص الذي زاره في مكتبي والذي أصرَّ بكبرياءَ تامَّةٍ على أنه موكله، لم يكن أكثر من جامع أوراق نقدية، وصكُّ التمليك المزعوم لـــيس أكثر من ورقة نقدية. ولكن مع كل عيوبه والمضايقات التي سبَّبها لي، كان نيبرز مثل رفيقه تيركي رجلاً مفيداً جدّاً لي، يكتب بخط أنيقٍ وسريع، وعندما يشاء بنفسه لم يكن ليعوزه التَّصرُّف بطريقة مهذبة. إضافة إلى ذلك كان دائماً يرتدي ملابسه بطريقةٍ مهندمة، وهكذا يضفي سمعةً حسنةً على مكتبي، بينمـــا -فيمـــا يتعلـــق بتيركي- أبذل جهداً كبيراً في منعه من أن يسبب لي خِزْياً. كانت ملابسُهُ ملوَّثةً بالزيت وتفوح منها رائحةُ المطاعم الرخيصة. كان في الصيف يرتدي بنطاله بطريقة غير مُحْكَمة تجعلــه فضفاضــاً. كانت سِتَرُه رديئة جدّاً، وقبعته لا يستطيع التحكُّم في تســـويتها. وبقدر عدم كون القبعة شيئاً ذا أهمية بالنسبة إليَّ بقدر ما كـــان لطفه واحترامه الفطريان، باعتباره إنجليزيّاً خاضعاً، يدفعانه دائماً إلى نزعها لحظة دخوله الغرفة، إلا أن سِتْرَتَهُ كانت موضوعاً آخر. فيما يتعلق بستَرِه حاولت إقناعه لكن دون نتيجة. اعتقـــدت أن الحقيقة كانت، أن رجلاً بدخلٍ قليلٍ جدّاً، لا يستطيع أن يملـــك وجهاً صقيلاً وسِتْرَةً لامعةً مرَّةً واحدة وفي نفس الوقت. وكمـــا

علّق نيبرز مرّةً كانت نقود تيركي تذهب في الأغلب لأجل الحبر الأحمر[٨]. ذات يوم شتويٍّ أهديت تيركي سترة لي لائقةَ المظهر بشكل كبير، سترةً رماديَّةً محشوَّةً ودافئةً إلى حدٍّ مريح، ومزرَّرةً بشكلٍ متصلٍ من الرُّكبة وحتى العنق. اعتقدت أن تيركي سيُقدِّر الخدمة ويُخفِّف من تهوُّرِه وصخبه بعد الظهر. لكن لا، إنني أعتقد من غير ريب أن تزريرَه نفسَه بسِتْرَةٍ كهذه مُزغِّبةٍ وشبيهةٍ بالبطانية له تأثير ضارٌّ عليه -على نفس مبدأ أن الشوفان[٩] الكثير جدّاً يضرُّ بالخيول. في الحقيقة، تماماً كما يقال عن حصانٍ متهورٍ حرون إنه يصبح هائجاً عبر أكله الشوفان، كذلك تيركي يصبح طائشاً بسبب سترته، إنها تجعله وقحاً وليس جديراً بمحبَّة أحد.

وعلى الرغم من أنه لديَّ ظنوني الخاصة فيما يتعلق بعادات تيركي المنطلقة العنان في أهوائها، إلا أنني فيما يخص نيبرز مقتنع تماماً أنه أيّاً كانت أخطاؤه في أوجهٍ أخرى، غير أنه كان على الأقل شابّاً معتدلاً في معاقرة الخمر. ولكن يبدو أن الطبيعة نفسَها

---

(٨) تورية يستخدمها ملفل على نحو مركب، حيث يرمي إلى الحبر الأحمر المستخدم في الكتابة والنبيذ الأحمر الذي يتناوله تيركي. (المترجمة).

Red ink: red wine, Partridge, Eric. 2002. (ed) Beale, Paul. *A Dictionary of Slang and Unconventional English.* 8th edition. Frome & London.

(٩) الشُّوفان: نبات علفي من الفصيلة النَّجيلية. (المعجم الوسيط).

كانت تصنعه خمراً، وعند مولده أشبعته تماماً بمزاجٍ نَــزِقٍ شــبيه بالبراندي، إلى حدٍّ أن جميع الجرعات اللاحقة لم تكن ضــرورية. عندما أفكّر كيف كان نيپرز، وسط سكون مكتبي، ينهض أحياناً من مقعده بنفاد صبر، ومنحنياً فوق طاولته يبسط ذراعيه علــى اتساعهما، يمسك الطاولة بأكملها، يحركها، يرجُّها علــى الأرض بحركة شرسة ساحقة وكأن الطاولة عاملٌ منحرفٌ يتعمَّد إراديّــاً معاندته ومناكدته؛ أدرك ببساطة أن البراندي والماء كليهما زائدٌ بالنسبة إلى نيپرز.

كان من حسن حظي أنه بسبب العلّة الغريبة –عسر الهضم– فإن حدَّة طبع نيپرز وما يليها من عصبية كانا ملحوظين أكثــر في الصباح، بينما يكون بعد الظهر لطيفاً نسبيّاً. هكذا إذن، نوبــات تيركي تظهر فقط عند الثانية عشرة، ليس عليَّ أبــدا أن أواجــه أطوارَهما الغريبة في نفس الوقت. كانت نوباتُهما تحلُّ محلَّ بعضها بعضًا كالحُرَّاس. عندما يكون نيپرز في الخدمــة يكــون تيركــي خارجها، *والعكس بالعكس*. كان ذلك تسويةٌ طبيعية جيــدة في حالٍ كهذه.

جنِجَرْ نَتْ، الثالث في قائمتي، كان صبيّاً في الثانية عشــرة. كان أبوه سائق عربة، وكان توّاقاً إلى رؤية ولده جالساً على مقعد

قاضٍ عوضاً عن عربة، قبل مماته. لذلك أرسله إلى مكتبي باعتباره طالباً في القانون، ساعيَ مكتبٍ، منظِّفاً وكنَّاساً بمعدِّل دولار يتقاضاه في الأسبوع. كانت لديه طاولة صغيرة لكنه لم يكن يستخدمها كثيراً. عند المعاينة يكشف الدُّرج عن صفٍّ كبير من قشورِ أنواعٍ مختلفةٍ من البندق. حقّاً، إنَّ العلمَ الكاملَ الرفيعَ للقانون بالنسبة إلى هذا الشابِّ الحادِّ الذكاء محتوى في قشرة بندق. لم يكن الأقلَّ بين مهامِّ جنجر نت، إضافة إلى تلك التي يؤديها بكل خفَّة، عملُهُ مموِّن كعكٍ وتفاح لتيركي ونيپرز. وكون نسخ الأوراق القانونية مشهوراً عنه أنه عملٌ جافٌّ وضخم؛ فإن ناسخيَّ كانا مسرورَيْن بترطيب أفواههما كثيراً بكعك سبيتزنبرجز[10] Spitzenbergs، الذي يحصلان عليه من الأكشاك الضخمة قرب إدارة الجمرك ومكتب البريد. كذلك كانا كثيراً ما يُرسِلان جنجر نت ليجلب لهما ذلك الكعك الغريب -الصغير، المُسطَّح، الدَّائريَّ، الكثيرَ التَّوابل- الذي تَسمَّى جنجر نت باسمه. في الصباح البارد، عندما لا يكون العمل إلا بليداً، يلتهم تيركي قِطَعاً من هذا الكعك وكأنها مجرد رِقاقٍ - حقّاً، تُباع سِتٌّ أو ثمانٌ منها بقيمة بنس واحد- ويمتزج صريرُ

---

(١٠) عبارة عن خليط من التفاح الأحمر والأصفر. (JHP)

قلمِهِ بصوت طحن القطع الهشَّة في فمِهِ. كان من بين التَّهوُّر المضطرب والأخطاء الفادحة التي يقع فيها تيركي في فترة ما بعد الظهر الهائجة، أنْ قام مرَّةً بترطيب كعكة زنجبيل بين شفتيهِ وتثبيتِها على صَكٍّ رهنٍ باعتبارها ختْماً. كنت على قيدِ شعرةٍ من طرده آنذاك، لكنَّه هدَّأني بانحناءةٍ شرقيَّة قائلاً: "احتراماتي سيدي، كان كرماً منِّي أن زوّدتك مرَّة بأدوات الكتابة على حسابي الخاص".

والآن أخذتْ أعمالي الأساسية -كتحرير وثائق نقل الملكية، وعقود التمليك، ونقل الوثائق المبهمة من كل نوع- تتزايد كثيراً باستلامي مكتب ماستر. وصار هناك عمل كثير يقوم به النَّاسخون. ليس عليَّ أن أضغط على الناسخين الموجودين فقط، وإنما يجب عليَّ الحصول على مساعدة إضافية.

ردًّا على إعلاني، وقف شابٌّ ساكناً ذات صباح عند عتبة مكتبي، وقد كان الباب مفتوحًا نظرًا لأن الوقت كان صيفاً. أستطيع تصوُّر ذلك المظهر الآن: نظيفاً بشكل شاحب، مهذباً بشكل يُرثى له، وبائساً على نحوٍ يتعذَّر شفاؤه! كان ذلك بارتلبي.

بعد بضع كلمات تتعلَّق بمؤهِّلاته وظَّفتُه مسروراً بأن أحظى،

بين فيلق النَّاسخين الذين لديَّ، برجل له سِيْمَاءُ رزينةٌ على هـــذا النَّحو الفريد، الأمرُ الذي قد يُؤثِّر –فكَّرتُ– بشكل مفيد علـــى المِزاج المتقلِّب لتيركي وذاك المُتَّقِد لنيپرز.

كان عليَّ أن أذكر من قبل أن باباً زجاجيّاً ذا مصراعين كان يفصل مبناي إلى قسمين، يَشْغَلُ أحدَهما النَّاسخون، بينما كنـــتُ أشْغَلُ الآخر. حسب مِزاجي كنتُ أفتح الباب أو أغلقه. قـــررت أن أُخصِّص لبارتلبي زاويةً قرب الباب ذي المصراعين، ولكن عند جانبها القريب مني حيث يكون من السهل مناداة هـــذا الرجـــل الهادئ في حالة وجود شيءٍ تافهٍ ينبغي إنجازُه. وضـــعت طاولتـــه قرب نافذة جانبية صغيرة في ذلك الجزء من الغرفة، نافذةٍ كانت تمنح في الأصل مشهداً جانبيّاً لبعض الأفنية القِرميديَّة الكالحـــة، ولكنَّها بسبب التشييد اللاحق لا تمنح الآن أيَّ منظر البتَّةَ بالرغم من أنها تجود ببعض الضوء. ضمن ثلاثة أقـــدام مـــن الألـــواح الزجاجية للنافذة كان هناك جدار، وكان الضوء يسقط من علوٍّ بعيدٍ بين مبنيين شاهقين وكأنما يسقط من كَوَّة صغيرة جدّاً في قُبَّة. ومع ذلك، إضافة إلى تسوية مُرْضِية، فقد جلبتُ حاجزاً أخضـــرَ قابلاً للطَّيِّ يُمكِنه حجْبَ بارتلبي تماماً عن ناظري، ولكن ليس عن صوتي. وهكذا، إلى حدٍّ ما، تتَّحد الخصوصيَّة والرِّفقة.

في البداية أنجز بارتلبي كمّاً استثنائيّاً من الكتابة. وكأنّه كان مُتعطِّشاً منذ مدة طويلة لشيءٍ ينسخه، كان يبدو أنه يمتلئ بالعمل على نسخ وثائقي. لم يكن هناك توقف للهضم. كان يعمل طَوال النهار والليل، ناسخاً تحت ضوء الشمس وضوء الشمعة. كان ينبغي عليَّ أن أكون مسروراً جدّاً بانكبابه، لأنّه كان مُجِدّاً بشكل مبهج. لكنه كان يكتب بصمتٍ ووَهَنٍ وعلى نحوٍ آليّ.

إنه بالطبع جزءٌ أساسيٌّ في عمل النَّاسخِ أنْ يقومَ بالتَّحقُّقِ من دِقَّةِ نسختِهِ كلمةً كلمة. أينما يكون هناك ناسخان أو أكثرُ في مكتبٍ فإنهما يُساعِدان بعضَهما بعضاً في هذا الفحص، أحدُهما يقرأُ النسخة والآخرُ يحمل الأصل. إن ذلك أمرٌ بليدٌ ومُمِلٌّ جدّاً ويدعو إلى النوم. أستطيع أن أتخيَّل بسهولة أن ذلك بالنسبة إلى بعض دَمَوِيِّيْ المِزاج(١١) لا يُطاق بكل ما في الكلمة من معنى.

(١١) "المِزَاجُ: ما يُمزَج به الشراب ونحوه. وكل نوعين امتزجا فكلٌّ واحدٍ منهما مِزاجٌ. وفي التنزيل العزيز: "كان مِزاجُها كافورًا". و –استعداد جسميٌّ عقليٌّ خاصٌّ كان القدماءُ يعتقدون أنه ينشأ عن أن يتغلَّب في الجسم أحدُ العناصر الأربعة، وهي: الدم، والصفراء، والسوداء، والبلغم. ومن ثم كانوا يقولون بأربعة امزجة، هي: الدَّمويُّ، والصَّفراويُّ، والسَّوداويُّ ، والبلغميُّ. أما المُحْدَثون من علماء النَّفس فيُوافقون القُدماء على أن الأمزجة ترجع إلى مؤثرات جُثمانية، ولكنهم يُخالفون في عدد

مثلاً، لا أستطيع أن أُصدِّق أن بايرون[١٢] Byron الشاعر المُتَّقِدَ نشاطاً، سيجلس برضى مع بارتلبي لفحص وثيقة قانونية مِنْ، قُلْ، خمسمئة صفحة مكتوبة بخطٍّ متموِّجٍ إلى حدٍّ بعيد.

بين الحين والآخر، في عجلة العمل، كانت عادتي أن أساعد بنفسي في المقارنة بين بعض الوثائق القصيرة، داعياً تيركي ونيپرز من أجل هذا الغرض. كان هدفي الوحيد من وضع بارتلبي قريباً جدّاً منّي خلف الحاجز أنْ أفيد نفسي من خدماته في مثل هذه المناسبات العادية. في اليوم الثالث على وجوده معي، حسبما أعتقد، وقبل بروز ضرورة لفحص كتابته، ولكوني مستعجلاً كثيراً على إتمام شأن صغير في يدي، ناديت بارتلبي على نحو مفاجئ. في عجلتي وتوقُّعي الطَّبيعيِّ لامتثالٍ فوريٍّ جلستُ ورأسي مُنحنٍ على النسخة الأصلية فوق طاولتي ويدي اليمنى على الجنب، وعلى نحو عصبيٍّ إلى حدٍّ ما، مستمرّاً مع النسخة، بحيث،

الأمزجة وأسمائها، إذ يعتدُّون بالإفرازات التي تُفرِزُها الغُددُ الصُّمُّ كالغُدَّة الدَّرقيَّة، والغُدَّة الكُلْوِيَّة، ويجعلونها المؤثرات الأساسية في تكوين المِزاج. ج أَمْزِجَةٌ". (المعجم الوسيط).

(١٢) جورج جوردون، اللّورد بايرون (١٧٨٨-١٨٢٤): الشاعر الإنجليزي الرومانسي. (JHP)

فوراً عند ظهور بارتلبي من ملجئه، قد يختطفها ويواصل العمل دون أدنى تأخير.

جلستُ في هذا الوضع تماماً عندما ناديته، مُقرِّراً بسرعة ما أردت منه القيام به- عنيتُ أن يفحص معي ورقة صغيرة. تخيَّلوا دهشتي، بل ذعري عندما، دون أن يتحرك من عزلته، أجاب بارتلبي بصوتٍ لطيفٍ وحازمٍ على نحوٍ فريد: "أُفضِّل ألَّا".

جلستُ لحظةً في صمتٍ تام، مستجمعاً قُوَايَ الذاهلة. خطر ببالي مباشرة أنَّ أذنيَّ تخدعاني، أو أنَّ بارتلبي لم يفهم مقصدي تماماً. كرَّرت طلبي بأوضح نبرةٍ استطعت أنْ أتظاهر بها، ولكنْ بأوضح ما تكون النبرة أتى الردُّ السابق: "أُفضِّل ألا".

"تُفضِّل ألا"، ردَّدتُ ناهضاً باهتياج بالغ، قاطعاً الغرفة بخطى واسعة. "ماذا تقصد؟ هل أنت ممسوس؟ أريدك أن تساعدني في مقارنة هذه الورقة هنا، خذها"، ودفعتها نحوه.

"أفضِّل ألا"، قال.

نظرتُ إليه بثبات. كان وجهُه هادئاً بشكل هزيل، وعيناه الرَّماديَّتان ساكنتين على نحو كالح. ما من شائبةِ اضطرابٍ حرَّكتْه. لو كان ثمَّة أقلُّ ارتباكٍ، غضبٍ، نفادِ صبرٍ، أو وقاحةٍ في

سلوكه. بمعنى آخر: لو كان ثمة أيُّ شيءٍ بشريٍّ بصورة عادية فيه؛ لكنتُ بلا شكٍّ طردته بقسوة من مبناي. لكن ذلك يبدو كأنني أفكّر بطرد تمثال شيشرون[١٣] Cicero الصدري الشاحب المصنوع من الجبس الپاريسيِّ خارجاً[*]. وقفت محدّقاً فيه هنيهةً وهو مستمر في كتابته، ثم عدت للجلوس خلف طاولتي. إن ذلك غريب جدّاً، فكرت. ما الأفضل الذي ينبغي على المرء أن يفعل؟ لكن عملي كان يستعجلني. قررت أن أنسى الأمر في الوقت الحالي، محتفظاً به إلى وقت فراغي مستقبلاً. لذلك، بعد مناداتي نيپرز من الغرفة الأخرى كانت الورقة قد فُحِصَتْ بسرعة.

بعد أيام قليلة من ذلك، أنهى بارتلبي أربع وثائق طويلة، أربع نسخ من شهادة أسبوعٍ كامل قُدِّمتْ أمامي في محكمة تشانسري العُليا. وغدا من الضروري فحصها. كانت دعوى قضائية مهمة،

(١٣) شَيْشَرون، ماركوس توليوس (١٠٦-٤٣ ق.م): سياسي وخطيب روماني، يعتبر أعظم خطباء روما قاطبة. (المورد الأكبر)، إضافة إلى أنه اشتهر كمحامي دفاع. (JHP)

* يقصد المحامي أن استحالة طرد بارتلبي من المكتب تبدو كاستحالة أن يطلب من التمثال أن يخرج من المكتب، وهنا يُشبِّه المحامي بارتلبي في عناده الصلب ورفضه الحركة بالتمثال الشاحب المصنوع من الجبس الپاريسيِّ الصلب. (المترجمة).

والدقة الكبيرة كانت ضرورية. بعد ترتيب جميع الأوراق، ناديت تيركي ونيپرز وجنجر نت من الغرفة المجاورة، قاصداً أنْ أضع النُّسخ الأربع في أيدي الناسخين الأربعة، بينما أقرأ أنا من الأصل. وفقاً لذلك، أخذ تيركي ونيپرز وجنجر نت مقاعدهم في صفٍّ، كلٌّ بوثيقته في يده، عندما ناديت بارتلبي أن ينضمَّ إلى هذه المجموعة اللطيفة.

"بارتلبي! بسرعة، إنني أنتظر".

سمعت احتكاكاً بطيئاً لقوائم كُرسيِّه بالأرضية العارية من السَّجَّادة، وسرعان ما ظهر واقفاً عند مدخل صومعته.

"ما المطلوب؟" قال بعصبيَّة.

"النُّسَخُ، النُّسخ"، قلتُ باستعجال، "سنقوم بفحصها. هِيَ ذي"، وحملت له النسخة الرابعة.

"أُفضِّل ألا"، قال واختفى بهدوء خلف الحاجز.

للحظات تحوَّلتُ إلى عمودٍ من الملح(١٤)، واقفاً على رأس

---

(١٤) سِفْر التكوين، الإصحاح ٢٦:١٩: تحوَّلت امرأة لوط إلى عمود ملح لعصيانها أوامر الرَّبِّ بعدم التفاتها إلى الخلف حيث حاق الدمار بسدوم وعمورة. (JHP). ٢٣ وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطُ إِلَى

الصَّفِّ الجالس من الناسخين. مستعيداً رشدي تقدَّمتُ نحو الحاجز وسألتُ عن سببِ مثل هذا السلوك الغريب جدّاً.

"لماذا ترفض؟".

"أُفضِّلُ ألا".

مع رجل آخر، لكنتُ تلاشيت تماماً في غضبٍ مروِّع، ورفضت جميع الكلمات الإضافية، ودفعته عن حضوري على نحو مذلٍّ، لكن كان ثمة شيء في بارتلبي لا يُهدِّئُ من غضبي على نحو غريب فحسب، ولكنه يَمُسُّني ويُربِكُني بطريقة عجيبة. بدأت بمحاولة إقناعه.

"هذه نسخك التي نحن بصدد فحصها، إن ذلك يوفر عليك الجهد لأن فحصاً واحداً سيفي بالغرض بالنسبة إلى جميع أوراقك الأربع. إن ذلك عرفٌ شائع. كلُّ ناسخٍ مُلزَمٌ بالمساعدة في فحص نسخته. أليس كذلك؟ ألا تتكلم؟ أجب!".

صُوغَرَ، [٢٤] فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ. [٢٥] وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمُدُنِ، وَنَبَاتَ الأَرْضِ. [٢٦] وَنَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ. الكتاب المقدّس الإلكتروني:

.http://www.jctoday.com/bsoe/onlinebible/index.asp

"أُفضِّل ألا" أجاب بنبرة تشبه نغمة الناي. عندما أخاطبه كان يبدو لي أنه يفكر باهتمام في كل تعبير أقوله، وأنه يفهم المعنى على نحو تامٍّ، وأنه لا يُنكِر النتيجة الطبيعية لذلك، ولكـــن يبـــدو في الوقت ذاته أنَّ ثمّة سبباً أقوى يجعله يجيب كما فعل.

"أنت مصمم إذن على ألا تستجيب لطلبي –طلب موضوع حسب العرف الشائع والحس العام؟".

إنه جعلني باختصار أفهم أن حكمي عند تلك النقطة كـــان صائباً. نعم: كان قراره مُتعذّراً إلغاؤه.

ليست بالحالة النادرة أنّه عندما يُهان امرؤ ما بطريقة لم يسبق لها مثيل وغير عقلانية على نحو قاس أن يبدأ بالشَّكِّ في أصدق ما لديه من إيمان. إنه يبدأ، إذا جاز التعبير، في الظّنِّ على نحو غامض بأن كلَّ العدل وكلَّ العقل يقعان في الجانب الآخر. وفقاً لذلك، إذا تواجد أشخاص غير مهتمين بالموضوع، فإنه يرجع إليهم مـــن أجل بعض التعزيز لعقله المضطرب.

"تيركي"، قلتُ، "ما رأيك في ذلك؟ ألستُ مُحِقّاً؟".

"احتراماتي سيِّدي"، قال تيركي بنبرته الرقيقة، "أعتقد أنـــك كذلك".

"نيبرز"، قلتُ، "ما رأيك في ذلك؟".

"أعتقد أنني سأركله إلى خارج المكتب".

(إن القارئ الذي يتمتَّع بإدراك دقيق، سيُلاحِظ هنا أنه كون الوقت صباحاً جاءت إجابة تيركي مُصاغة بمفردات لطيفة وهادئة، ولكن نيبرز يجيب بطريقة نزقة، أو، لتكرار عبارة سابقة، كان المِزاج النَّكِدُ لنيبرز في الخدمة بينما مزاج تيركي كان خارجها).

"جنجر نت"، قلتُ، راغباً في تطويع حتَّى أصغر صوت لصالحي، "ما رأيك في ذلك؟".

"أعتقد يا سيِّدي أنه معتوه قليلاً"، أجاب جنجر نت بابتسامة عريضة.

"تسمع ما يقولون"، قلتُ مستديراً نحو الحاجز، "تعال فوراً وقُمْ بواجبك".

لكنه لم يتلطَّفْ بالإجابة. تفكَّرتُ لحظةً وأنا في حيرة شديدة. لكنَّ عملا آخر استعجلني. قررت مجدداً تأجيل التفكير في هذا المأزق لوقت فراغ مقبل. بقليل من العناء تمكَّنَّا من فحص الأوراق دون بارتلبي، بالرغم من أن تيركي كان عند كل صفحة

أو اثنتين يشير بمراعاةٍ إلى رأيه أن هذا الحدث كان خارج المعتـــاد إلى حدٍّ بعيد، بينما كان نيپرز ينتفض فوق كرسيه بعصبيةِ مُصابٍ بسوء الهضم، ويجرش بين طقم أسنانه بين الفينة والأخرى لعناتٍ مُهَسْهِسَةً ضد الأخرق العنيد خلف الحاجز، ومن جانبه (نيپـــرز) كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي يقوم فيها بعمـــل شـــخص آخر من دون أجر.

وفي غضون ذلك جلس بارتلبي في صومعته غافلاً عن كـــلّ شيء عدا عملِه الغريب هناك

مرّت بضعة أيام انشغل خلالها النَّسَّاخ بعمل طويـــل آخـــر. قادني سلوكه الاستثنائيُّ الأخير إلى ملاحظته بدقة. لاحظت أنه لا يخرج للغداء أبداً. فعلاً، لم يكن يذهب إلى أيِّ مكان. كما أنـــني حسب معرفتي الشخصية لم أعهد كونه خارج مكتبي أبداً. كـــان حارساً أبديّاً في الزاوية. وبالرَّغم من ذلك، في حوالى السابعة تماماً في الصباح، كنت أُلاحِظ جنجر نت يَتقدَّم ناحية فتحـــة حـــاجز بارتلبي وكأنه كان يُومِئُ صامتاً إلى هناك بإشارة غـــير منظـــورة بالنسبة إليَّ حيث أجلس. كان الصَّبِيُّ يغادر المكتب مُجلجِلاً بضع پنسات، ثم يعاود الظهور بحفنة من كعك البندق بالزنجبيل يوصله إلى الصومعة مستلماً قطعتين اثنتين من الكعك لقاء تعبه.

كان يعيش إذن على كعك البندق بالزنجبيـــل، فكَّـــرتُ، لا يتناول غداءً قطُّ. ولأتحدَّثَ بدقة: لا بدَّ أنه كان نباتيّاً إذن، لكنْ لا، إنه لا يتناول حتَّى الخضروات، أبداً، إنه لا يأكل شيئاً ســـوى كعك البندق بالزنجبيل. أخذ عقلي إذ ذاك يدور في تأملات تتعلق بالتأثيرات المُتوقَّعة على بنية جسم الإنسان لعيشه كُلِّيَّةً على كعك البندق بالزنجبيل. يُسمَّى كعكُ البندق بالزنجبيل بهذا الاسم لأنـــه يحتوي على الزنجبيل باعتباره واحداً من عناصره المميِّزة ونكهتـــه الحاسمة. الآن، ما الزنجبيل؟ شيءٌ حارٌّ كثيرُ التَّوابل. هـــل كـــان بارتلبي عنيفاً وحادّاً؟ لا أبداً. إذن لم يكن للزنجبيل تـــأثير علـــى بارتلبي، ربما كان يُفضِّل ألا يكون لذلك تأثير عليه.

لا شيء يثير شخصاً جادّاً إلى هذا الحدِّ مثلُ مقاومةٍ ســـلبيَّة. إذا كان الشَّخصُ المقاوَم ذا مزاجٍ غيرِ قاسٍ، والشَّخصُ المقـــاوِم غيرُ مؤذٍ مطلقاً في سلبيته، فإن الأول في أفضل حالاته المزاجيـــة سيُحاوِل أن يتفهَّم الثاني عبر التَّخيُّل حتى إن كان ذلـــك ضـــد حكمه الصَّائب. وحتى لو كان الأمر كـــذلك فـــإنني في الأعـــمِّ الأغلب أحترم بارتلبي وطُرُقَه. المسكين! فكرَّتُ، إنه لا ينوي أيَّ أذىً، من الواضح أنه لا يقصد أيَّة إهانة، سيماؤه تثبت بشـــكل كافٍ أن أطوارَه الغريبة لا إراديَّة. إنه مفيد لي. أستطيع الانسجام

معه. إذا طردته ستكون التَّوقُّعاتُ أن يُصادف مستخدِماً أقلّ تسامحاً، ومن ثمَّ سيُعامَل بفظاظة، وقد يُدفَع إلى الجوع بشكل مثير للشفقة. نعم. هنا أستطيع الحصول بيسر على استحسانٍ ذاتيّ مبهج، أن أصادق بارتلبي، أن أداريَه في عناده الغريب، سيكلفني القليل أو لا شيء، في حين إنني أضع في اعتباري ما سيُحقّق في آخر الأمر راحةً لذيذةً لضميري. غير أن هذا المزاج لم يكن ثابتاً معي. كانت سلبية بارتلبي تُغضِبُني أحياناً. شعرت أنني مدفوع بغرابة إلى مواجهته بمقاومة جديدة؛ لانتزاع بعضِ شرارةِ غضبٍ منه داحضة لغضبي. لكنْ بالفعل، وكأنني أحاول إشعال النار من خلال حكِّ قطعة من صابون ويندسور[١٥] بجُمْع كفّي[*]. ولكنْ ذاتَ نهارٍ تمكّنتْ مِنّي النَّزوةُ الشِّرِّيرةُ داخلي، وتلاها المشهد القصير التَّالي:

"بارتلبي"، قلتُ، "عندما تنتهي من نسخ جميع هذه الأوراق سأُقارِنُها وإيَّاك".

"أُفضِّل ألاَّ".

---

(١٥) صابون عطري بني اللون يستخدم لغسل اليدين. (JHP).

(*) يقصد المحامي استحالة استثارة غضب بارتلبي كاستحالة إشعال النار من خلال حكِّ كفِّه بقطعة صابون. (المترجمة)

"كيف؟ من غير ريب أنك لا تقصد الاستمرار في ذلك الوهم العنيد".

لا ردّ.

فتحتُ الباب القريب ذا المصراعين، ومستديراً ناحية تيركي ونيپرز صرختُ:

"بارتلبي يقول للمرة الثانية إنه لن يفحص أوراقه. ماذا تعتقد يا تيركي؟".

تذكّروا: كان الوقت نهاراً. كان تيركي يجلس مُحتـــدِماً مثلَ غلايةِ الصُّفْر[١٦]، كانَ رأسه الأصلع يتميَّز مـــن الغضـــب، ويداه تضطربان بين أوراقه المُلطَّخة.

"أعتقد؟" زأر تيركي، "أعتقد أنني فقط سأخطو خلف حاجزه وأُسَوِّدُ له عينيه!".

في أثناء قول تيركي ذلك نهض على قدميه وألقى ذراعيـــه في وضعية ملاكم محترف. كان يتعجَّل لِيَفِيَ بوعده عنـــدما أوقفتُـــه منتبهاً إلى نتيجة الإثارة القليلة الحذر لاســـتعداده للقتـــال بعـــد

(١٦) النحاس الأصفر. (المعجم الوسيط).

الغداء.

"اجلس يا تيركي"، قلتُ، "واسمعْ ما سيقوله نيپرز. ماذا تعتقد يا نيپرز؟ ألن أكون عادلاً في طرد بارتلبي حالاً؟".

"المعذرة، ذلك أنت من يُقرِّرُه يا سيِّدي. أعتقد أن سلوكه غيرُ مألوف إلى حدٍّ بعيد، وغيرُ عادل حقّاً بالنسبة إلى تيركي وإليَّ. ولكنْ قد يكون ذلك نزوةً عابرة".

"آه"، هتفتُ، "لقد غيَّرْتَ رأيك على نحو غريب، إذن، أنت تتحدث عنه بلطف بالغ الآن".

"كُلُّهُ بسبب الجِعَة"، صاح تيركي، "اللُّطف بتأثير الجِعَة، نيپرز وأنا تناولنا الغداء معاً اليوم. هل ترى كم *أنا* لطيف يا سيِّدي. هلاَّ ذهبتُ وسوَّدتُ عينيه؟".

"أنت تقصد بارتلبي، أظنّ. لا ليس اليوم يا تيركي"، أجبتُ، "أتوسَّلُ إليكَ، أَرْخِ قبضتك".

أغلقتُ الباب وتقدَّمت نحو بارتلبي مرَّة أخرى. شعرتُ بمُحفِّزات أخرى تغريني باتجاه قدري. اشتعلت لأكون ثائراً ضده مرة أخرى. تذكرت أن بارتلبي لم يُغادِرِ المكتب أبداً.

"بارتلبي"، قلتُ، "جنجر نت ليس هنا. فقط اذهب إلى مكتب البريد، ألن تفعل؟ (إنه سير ثلاث دقائق فقط) وتأكد إذا كان ثمة شيءٌ لي".

"أُفضِّل ألا".

"ألن تذهب؟".

"أُفضِّل ألا".

ترنَّحتُ حتَّى وصلتُ إلى مكتبي، وجلستُ هناك في تأمل عميق. عاد عنادي الأعمى. هل هناك أيُّ شيءٍ آخرَ يجعلني مرفوضاً بشكل مُذِلٍّ من قِبَلِ هذا المخلوق الهزيل المُعْدَم؟ كاتبي الأجير؟ ما الشَّيءُ الآخرُ، المعقول تماماً الذي سيكون متأكِّداً من رفضه القيام به؟

"بارتلبي!".

لا ردّ.

"بارتلبي"، بنبرة أعلى.

لا ردّ.

"بارتلبي"، زأرتُ.

كشبحٍ مُجَرَّدٍ ظهَرَ بعد النِّداء الثَّالث عند مدخل صـــومعته على نحوٍ ينسجم مع قوانين التَّعاويذ السِّحريَّة[١٧].

"اذهب إلى الغرفة المجاورة وأخبر نيپرز بأن يأتيَ إليّ".

"أُفضِّل ألا"، قال باحترامٍ وبطءٍ، وتوارى بلطف.

"جيِّد جدّاً يا بارتلبي"، قلتُ بنبرةٍ سِلْمِيَّةٍ هادئة ولكنها رابطةُ الجأش، مُلمِّحاً إلى عزمٍ غيرِ قابلٍ للتَّغيير على عقابٍ فظيعٍ قريبٍ جدّاً من الحدوث. في لحظةٍ كنتُ أنوي إلى حدٍّ بعيدٍ فعلَ شيءٍ من ذلك. ولكنْ، إجمالاً، لَمّا كان الوقت يُشارِفُ ساعةَ غدائي، فكَّرتُ أنه من الأفضل أنْ أعتمر قبَّعتي وأذهبَ للبيت، مُتألِّماً كثيراً مـــن حيرة عقلي وأساه.

هل أعترف بذلك؟ كانت نتيجة هذا الموضـــوع برُمَّتـــه أنْ سرعان ما أصبحتْ حقيقةً ثابتةً عن مكتبي أنَّ ناسخاً شابّاً شاحباً باسم بارتلبي لديه طاولة هناك، وأنه ينسخ لي في المُعَدَّل المعتـــاد (مئة كلمة) بواقع أربعة سنتات عن الورقة الواحدة، لكنه مُعفـــىً دائماً من فحص العمل الذي يقوم به، وأنَّ هذا العمل يُنقَـــل إلى

---

(١٧) تُطلَق التعاويذ السحرية ثلاث مرات حتى تتحقق الاستجابة كما هو شائع في كثير من الاعتقادات. (المترجمة).

تيركي ونيبرز إطراءً، من غير ريب، لذكائهما المتفوِّق، علاوة على ذلك يُقال إنَّ بارتلبي لم يكن مطلقاً ليُبعث من أجل أقلّ الرسائل أهمية من أيِّ نوع كانت، وإنَّه حتى لو تمَّ التَّوسُّل إليه ليأخذ على عاتقه مثل هذا الأمر فإنه يُفهَم عموماً أنَّه "يُفضِّل ألا"، بكلمة أخرى أنه يرفض على نحو باتّ.

لقد أصبحتُ مع مضيِّ الأيام متصالحاً إلى حدٍّ بعيد مع بارتلبي. إنَّ ثباته، وتحرُّرَه من جميع الملذَّات، وكدَّه المتواصل (إلا عندما يختار أن يُلقي بنفسه في تأمُّلٍ غارق خلف الحاجز)، وسكونَه العظيم، وسلوكَه الرَّاسخ تحت جميع الظروف، جعل منه مكسباً ثميناً. كان هناك شيءٌ رئيسيٌّ هو *-أنه كان موجوداً دائماً-* الأوَّلَ في الصَّباح، على نحو موصول طوال اليوم، والأخيرَ في اللَّيل. لديَّ ثقة فريدة في إخلاصه. أُحِسُّ أنَّ أكثر أوراقي أهمِّيَّةً تكون بأمان تامٍّ بين يديه. أحياناً، حقّاً، لا أستطيع، من أعماق روحي، أنْ أتجنَّب السقوط في انفعالات تشنُّجيَّة مفاجئة، ذلك أنه من الصعب جدّاً أن أضع نُصْبَ عينيَّ طوال الوقت تلك الأطوار الغريبة، والامتيازات، والاستثناءات التي لم يُسمَع بها، والتي تُشكِّل الاشتراطات الضِّمنيَّة ليبقى بارتلبي بموجبها في مكتبي. بين الحين والآخر، وفي غمرةِ إنجازِ عملٍ مُلِحٍّ، يحدث أن أستدعي

بارتلبي على نحو غير مقصود بنبرة قصيرة وسريعة لكـــي يضـــع إصبعه، لِنَقُلْ، فوق طرف خيط أحمر كنت على وشك ربط بعض الأوراق به. وطبعاً، من خلف الحاجز، يأتي الرد المعتاد "أُفضِّـــل ألا" بثقة، ثُمَّ، كيف لكائن بشريٍّ يتّصف بالعيوب السائدة الـــتي من طبيعتنا نحن البشر، أن يُمْسِكَ عن الصراخ في وجـــه عنـــادٍ كهذا، لاعقلانيَّةٍ كهذه. وبالرَّغم من ذلك فإن كل صَدٍّ أتلقَّاه من هذا النوع يترع فحسب إلى التقليل من إمكانيَّة تكرار طلب شيء منه يُفضِّل ألا يقوم به.

يجب القول هنا إنه، بحسب عادة معظم السَّـــادة القـــانونيِّين الذين يشغلون مكاتب في البنايات الخاصـــة بأعمـــال المحامـــاة والمكتظة بكثافة، هناك عدَّة مفاتيح لمكتبي: الأول كانت تحتفظ به امرأة تقيم في العِلِّيَّة، وهي الشخص الذي يُنظِّف مكتبي أسبوعيّاً ويكنسه وينفض عنه الغبار يوميّاً. الثاني كان يحتفظ بـــه تيركـــي بقصد الراحة، والثالث أحمله في جيبي أحياناً. أمَّا الرَّابعُ فلا أعرف عند مَنْ.

حدث في صباح يوم أحد أن ذهبـــتُ إلى كنيســـة تـــرينيتي Trinity، للاستماع إلى واعظ مشهور، ووجدتُني مُبكِّراً إلى حدٍّ ما في السَّاحة، ففكَّرتُ أن أمشي لـــبعض الوقـــت إلى مكـــتبي.

ولحسن الحظ كنتُ أحمل مفتاحي معي، ولكن، في أثناء وضعي إيَّاه في القفل، وجدتُ أنَّ هناك شيئاً يُقاوِمُه مُقحَماً مِنَ الدَّاخل. مدهوشاً تماماً صحتُ منادياً، فإذا بمفتاح يُدار مِنَ الدَّاخل مُسبِّباً لي الذعر، ومُبرِزاً طلعتَه الهزيلةَ أمامي، فاتحاً الباب جزئيّاً، ظهر شبحُ بارتلبي في قميصِه التَّحتانيِّ، وأيضاً في فُضَالةِ رداءٍ بالٍ على نحو غريب، قائلاً بهدوء إنه آسفٌ لكنه كان مشغولاً كثيراً منذ لحظات، ويُفضِّل ألا يسمح لي بالدخول في الوقت الحاضر. وبكلمة أو كلمتين وجيزتين أضاف، عِلاوةً على ذلك، أنه لعلَّه من الأفضل لي أن أتمشَّى حول المبنى مرتين أو ثلاث مرات، وحتى ذلك الحين يمكن أن يكون قد أنهى شؤونه.

كان لظهور بارتلبي غير المتوقع أبداً، ساكناً مكتبي في صباح يوم أحد، في هيئة سيِّد هزيل غيرِ مكترث وبالرغم من ذلك حازم ورابط الجأش، وَقْعٌ غريبٌ عليَّ، حتى إنني عاجزاً عن ضبط نفسي انسللت إلى خارج باب مكتبي -مكتبي خاصتي- منفِّذاً ما طُلِبَ منِّي، ولكن ليس بدون وخزاتٍ عدَّةٍ من ثورةٍ عاجزةٍ ضدَّ الوقاحةِ الباردة لهذا النَّسَّاخ غير القابل للتعليل. حقّاً، كان بروده العجيب خصوصاً هو الذي جرَّدني ليس من سلاحي فحسب، وإنَّما من رجولتي إذا جاز التعبير. لأنني أعتبر ذلك، تلك اللحظة،

ضرباً من عدم الرُّجولة، عندما أسمح بهدوء لكاتبي الأجير أن يُملي أوامره عليَّ، ويأمرني بالخروج من المبنى خاصتي. علاوة على ذلك، كنت ممتلئاً بالقلق بشأن ما يفعله بارتلبي في مكتبي في قميصه ذاك، وأيضا في وضع عارٍ في صباح يوم أحد. هل هناك من شيءٍ خاطئ يحدث؟ كلا، ذلك مستحيل. لا يمكن التفكير لحظةً في أنّ بارتلبي كان شخصاً بلا أخلاق. لكن ماذا يمكن أن يكون فاعلاً هناك؟ ينسخ؟ كلا مجدَّداً. أيّاً تكن غرابة أطواره كان بارتلبي شخصاً محتشماً بشكل بارز. سيكون آخر رجل يجلس إلى طاولته في أيَّة حالة تقترب من العُري. علاوة على ذلك، كان ذلك اليومُ يومَ أحدٍ؛ وهناك شيءٌ في بارتلبي يمنع افتراض أن يَنتهِك حرمة ذلك اليوم بأيِّ انشغال دنيويّ.

ومع ذلك لم يهدأ عقلي، ومفعماً بفضول لا يهدأُ عدتُّ أخيراً إلى الباب، ودون عائق أدخلتُ مفتاحي، فتحت الباب، ودخلت. لم يكن بارتلبي ظاهراً للعيان. نظرتُ حولي بقلق، اختلستُ النظر خلف حاجزه، ولكن كان واضحاً أنَّه قد ذهب. عند معاينتي المكان عن كثب حدستُ أنه لا بدَّ أنّ بارتلبي كان لمدة غير محدَّدة يأكل ويلبس وينام في مكتبي، وأنّ ذلك أيضاً دون صحنٍ، أو مرآةٍ، أو سرير. في إحدى الزوايا كان مقعد الأريكة المتداعية

القديمة المزوَّد بالوسائد يحمل الأثرَ الشَّاحبَ لشكلٍ هزيلٍ مستلقٍ. وجدتُّ بطانية مطويَّة تحت طاولته، صندوقاً أسودَ ومشطاً تحت الموقد الفارغ، طستاً قصديريّاً على كُرسيٍّ مع صابونة ومنشفة رثَّة، كِسَراً قليلة من كعك البندق بالزنجبيل وقطعةَ جبن فوق صحيفة. ومع ذلك، فكَّرتُ أنه يبدو واضحاً بشكل كاف أنَّ بارتلبي كان يصنع بيته هنا، مُتَّخذاً لنفسه بيتَ أعزب. آنئذٍ، ومباشرةً، عبرَتني الفكرة كاسحةً، أيَّةُ وحشةٍ ووحدةٍ بائستين تتكشَّفان هنا! إنَّ فقره عظيم، ولكنْ كم هي رهيبة عزلتُه! فكِّروا في الأمر! في يوم أحد، شارع وول ستريت مهجور كأنه البتراء[١٨]، وكلُّ ليلة كلُّ يوم فراغ. وهذا المبنى أيضاً الذي يَعُجُّ خلال أيام الأسبوع بالنشاط والحياة، عند هبوط الليل يُرجِّع أصداء فراغ مُطْبِقٍ، ويبقى طوال يوم الأحد مهجوراً. وها هو بارتلبي يصنع بيته هنا، مُتفرِّجاً وحيداً على عزلة يراها هو مكتظَّة،

---

(١٨) المدينة القديمة الواقعة على البحر الميِّت، وهي الأردن اليوم. عندما كانت البتراء مركزاً تجاريّاً هامّاً كانت تحيط بها المنحدرات الصخرية الشاهقة ذات اللون الأحمر، ومن هنا جاءت مقارنة ملڤل بينها ووول ستريت. (JHP).

وكأنه ماريوس البريء المتحوِّل قاعدٌ يُفكِّر بين أنقاض قرطاج![19]

للمرة الأولى في حياتي يتملَّكُني إحساسٌ بكآبة طاغية ولاذعة. سابقاً ما خَبَرْتُ أبداً أيَّ شيء عدا حزناً ليس ببغيضٍ. إنَّ رباط الإنسانية المشترك يسحبني الآن بشكل لا يُقاوَم نحو الكآبة، كآبة أخويَّة! ذلك أنَّنا أنا وبارتلبي ابنا آدم. تذكَّرت الحرير المشرق والوجوه المتلألئة التي رأيتها ذلك اليوم في زينة المهرجان، مثل بَجَعٍ تبحر في نهر المِسيسبِّي في برودواي Broadway، وقارنتها بالنَّسَّاخ الشاحب، وفكَّرت في نفسي: آهٍ، السعادة تغازل الضَّوء، لذلك نعتقد أن العالم مبتهج، ولكنَّ البؤس يختفي بعيداً،

---

(١٩) غايوس ماريوس (١٥٧-٨٦ ق. م): الجنرال والقنصل الروماني ذُو الأصول العامِّيَّة الذي تعرَّض للخيانة واضطرَّه أعداؤه من أشراف روما إلى الهرب. كثيراً ما تلحُّ صورته كعجوز يقعي وحيداً بين أنقاض مدينة قرطاج في شمال أفريقيا، هذه الصورة نفسها تتبَّعها التاريخي اليوناني بلوتارخ (١٢٠-٤٦ ق.م) حينما اقتبس في كتابه "حيوات متوازية ليونانيين ورومانيين لامعين" ردَّ ماريوس الحزين الساخط على مبعوث الحاكم الروماني في ليبيا الذي أنكر عليه حق اللجوء: "قُلْ له إنك رأيت غايوس ماريوس يقعد لاجئاً بين أنقاض قرطاج"، مقارناً بذكاء مصيره بمصير قرطاج. (JHP).

ولذلك نعتقد أنْ لا بؤسَ هناك. هذه الخيالات –الكِمِّيْرات[٢٠] في دماغ مريض وأحمق بلا شكٍّ– قادت إلى أفكار أخـرى أكثـر تحديداً فيما يتعلق بأطوار بارتلبي الغريبة. أخذتْ تحـوم حـولي أحاسيسُ سبقيَّةٌ لاكتشافات غريبة. وبـدت لي هيئـة النَّسَّـاخ الشاحبة مُمدَّدةً في كفنها المرتعش بين غرباء لا مبالين.

فجأةً استرعتِ انتباهي طاولة بارتلبي المغلقة، وكان المفتاح في الجهة اليسرى المرئية من القفل.

لا أقصد أيَّ أذى، ولا أنشد إشباع فضول عـديم الرَّحمـة، فكَّرتُ، عِلاوةً على ذلك الطاولة ملكي، وكذلك محتوياتها، لذلك سوف أجرؤ على النظر داخلها. كان كلُّ شيء مُرتَّباً على نحـو نظامي، والأوراقُ موضوعةً بشكل سَلِس. كانت عيون الخزانـة عميقة، ولكي أتلمَّس طريقي إلى أعماقها أبعدت رَتَلَ الوثـائق. أحسستُ بشيء هناك وسحبته إلى الخارج. كان منـديلاً كـبيراً مزداناً بالورود، ثقيلاً ومعقوداً. فتحته، وفهمت أنه يحوي نقـود توفير.

(٢٠) كِمِّيْر، كِمِّيرا: في الميثولوجيا اليونانية مخلوقة رهيبة تنفث مِنْ فيها النار. لها رأس أسد وجسم شاة وذنب أفعى. (المورد الأكبر).

تذكّرت الآن جميع الطقوس الهادئة التي لاحظتها على الرجل. تذكّرت أنّه لا يتحدّث أبداً إلا ليُجيبَ، وبالرَّغم من أنّ لديه وقتاً طويلاً وفُسَحاً لنفسه، إلا أنني أبــداً لم أره يقــرأ، لا، ولا حــتى صحيفة، وإنه يقف فتراتٍ طويلةً مُطلاً، عبر نافذته الشاحبة خلف الحاجز، على الجدار القِرْمِيديِّ الميِّت. كنتُ متأكداً تماماً أنّه لم يزُرْ أبداً حجرة طعام أو مطعماً، بينما يشير وجهه الشاحب بوضــوح إلى أنّه لم يشرب جِعَةً أبداً مثل تيركي، أو شاياً وقهوةً كالبشــر الآخرين، وأنّه لم يذهب إلى أيِّ مكان مُحدَّد قد أعرفه. لم يخــرج للمشي أبداً، إلا إذا كان، فعلاً، هذا هو الحال الآن، وأنّه رفــض الإخبار بمن يكون، أو من أين جاء، أو ما إذا كان لديه أقارب في العالم، وأنّه بالرغم من كونه نحيلاً وشاحباً جدّاً، إلا أنّه لم يَشْــكُ أبداً من اعتلالٍ في صِحَّتِه. وأكثر من كل ذلك، تذكّرتُ ســيماءَ معيَّنةً لاواعيةٍ لغطرسة -كيف أُسمِّيهــا؟- مريضــةٍ، لأقُــلْ، أو بالأحرى هدوءاً صارماً في شخصه يوقع في نفسي رهبة تجعلــني أذعن لأطواره الغريبة، فأخشى أن أسأله القيــام بأتفــه شــيء عَرَضِيٍّ، حتى إذا عرفتُ من سكونه الطويل المستمر أنه لا بدَّ أن يكون واقفاً خلف حاجزه في أحد تأملاته في الجدار الميِّت.

متأمّلاً جميع هذه الأشياء ورابطاً إيَّاها بالحقيقة التي اكتشفتها

مؤخراً: أنَّه جعل مكتبي مكانه وبيته الدائم الثابت، وغيرَ نـــاسٍ كآبته المُروِّعة، متأمِّلاً جميع هذه الأشياء بدأ شعور متعقِّل يتســـلَّل إليَّ. كانت مشاعري الأولى هي تلك الكآبة الخالصـــة والشَّـــفقة الصادقة، ولكن بمجرد أن أخذ بؤس بارتلبي ينمو وينمو في مخيِّلتي امتزجتْ تلك الكآبة بالخوف، والشفقة بالرفض. صحيحٌ تمامـــاً، وفظيع جدّاً أيضاً، أنَّه عند نقطة معيَّنة تُطوِّعُ فكـــرةُ الشـــقاء أو مشهدُه عواطفنا إلى أبعد حدٍّ، لكنها في حالات خاصة معينة، أبعد من تلك النقطة، لا تفعل. يُخطئُ مَنْ يجزمون أن ذلـــك بشـــكل ثابت يعود إلى الأنانية المتأصِّلة في القلـــب البشـــريّ. إن ذلـــك بالأحرى ينبثق من يأسٍ مؤكَّدٍ من علاج مرض متطرِّف وعضويّ. بالنسبة إلى كائن حسَّاسٍ ليستِ الشَّفقةُ ألمًا نادرًا. وعندما يُدرَك أخيراً أنَّ مثل هذه الشفقة لا يمكنها أن تقود إلى عون ناجع؛ فإنَّ الحِسَّ العامَّ يأمر النَّفسَ بالتَّحرُّر منها. إنَّ ما رأيته ذلك الصـــباح أقنعني بأن النَّسَّاخ كان ضحية اعتلال فطريٍّ وعُضال. قد أمـــنح صَدَقَاتٍ لجسده لكنَّ جسده لم يكن يؤلمه، كانت روحُه هي التي تتألم، والتي لا أستطيع الوصول إليها.

لم أُنجز غرضي بالذهاب إلى كنيسة ترينيتي ذلـــك الصـــباح. بطريقة ما أعجزتني الأشياء التي رأيتها عن زيارة الكنيسة. مشيتُ

باتِّجاه البيت مُفكِّراً فيما سأفعله مع بارتلبي. وأخيرا اعتزمتُ على هذا: سأضع له أسئلة محددة وهادئة صباح الغد تَمُسُّ ماضيه، إلخ، وإذا رفض الإجابة عنها بصراحةٍ ودون تحفُّظ (أظنّ أنه سيُفضِّل ألا) فإنني عندها سأعطيه عشرين دولاراً زيادةً وفوق كلّ ما أدين له به، وسأخبره بأنَّ خدماته لم تعُدْ مطلوبة. ولكنني إذا استطعتُ تقديم المساعدة له بأيَّة طريقة فسأكون سعيداً بذلك، وخاصة إذا رغب في العودة إلى موطنه، أينما يكون، فإنني سأتحمَّل التكاليف عن طيب خاطر. عِلاوةً على ذلك إذا وجد نفسه، بعد وصوله إلى موطنه، أنه بحاجة إلى عونٍ ما فإن رسالة منه ستتلقّى ردّاً أكيداً.

أقبل صباحُ اليوم التالي.

"بارتلبي"، قلتُ، منادياً إيَّاه بلطف من خلف الحاجز.

لا ردّ.

"بارتلبي"، قلتُ بنبرة أكثر لطفاً، "تعال هنا، لن أطلب منك القيام بأيِّ شيءٍ تُفضِّل ألا تقوم به، إنني أرغب أن أتحدث إليك فحسْب".

في أثناء ذلك ظهر للعيان بصمت.

"هلا أخبرتني يا بارتلبي أين وُلِدْتَ؟".

"أُفضِّل ألا".

"هلا أخبرتني أيَّ شيء عنك؟".

"أُفضِّل ألا".

"ولكنْ أيُّ اعتراض معقول يجعلك لا تتحدَّث إليَّ؟ أنا أُحِسُّ بمودَّة تُجاهك".

لم يكن ينظر إليَّ وأنا أتحدث، وإنَّما أبقى نظرته مثبَّتةً على التمثال الصَّدريِّ لشيْشرون الذي، حيث أجلس، كان خلفي مباشرة، وأعلى رأسي بحوالى سِتٍّ بوصات.

"ما ردُّك يا بارتلبي؟" قلتُ بعد انتظار ردِّه مدةً طويلةً ظلت ملامحه خلالها ساكنة. فقط كانت هناك أوهن ارتعاشة يمكن تصورها لشفتين شاحبتين ونحيلتين.

"في الوقت الحاضر أُفضِّل ألا أعطي أيَّة إجابة"، قال وانسحب إلى صومعته.

كان بالأحرى ضعفاً منِّي، أعترف، ولكن سلوكه في هذه المناسبة أثارني. لم يكن يبدو أن ازدراءً ما يتوارى فيه فقط، ولكنَّ

عناده كان يبدو عاقّاً إذا أخذنا بعين الاعتبار المعاملة والتدليل الرَّائعيْن اللّذين تلقّاهما منّي واللّذين لا يمكن جحدُهما.

مجدَّداً جلستُ مُقلّباً النظر فيما ينبغي عليَّ فعله. كنت أشعر بالخزي بسبب سلوكه، وعندما دخلت مكتبي كنت قد وطَّدتُ العزم على طرده، غير أنني شعرتُ بشيء وهميٍّ يطرق قلبي على نحو غريب، ويمنعني من تنفيذ غرضي، وينعتني بالنَّذل إذا ما جرؤتُ على همس كلمة قاسية واحدة ضد أكثر البشرية بؤساً هذا. أخيراً، بطريقة حميمية سحبتُ كُرسيّي إلى خلف حاجزه، جلستُ وقلتْ: "بارتلبي، لا تهتمَّ إذن بشأن كشف ماضيك، لكنْ، دعني أتوسَّل إليك، باعتباري صديقاً، أن تمتثل بقدر الإمكان لتقاليد هذا المكتب. قُلِ الآن إنك ستُساعِد في فحص الأوراق غداً أو بعد غد: باختصار قُلِ الآن إنك في غضون يوم أو اثنين ستكون متعقّلاً قليلاً، قُلْ ذلك يا بارتلبي".

"في الوقت الحاضر أُفضِّل ألا أكون مُتعقّلاً قليلاً"، كانت إجابته الباردة الواهنة.

في تلك اللحظة تماماً انفتح الباب ذو المصراعين، واقترب نيبرز. بدا أنه عانى من نوم سيِّئ في الليل بسبب سوء هضم أقسى

من المعتاد، سمع كلمات بارتلبي الأخيرة.

"تفضِّل ألا، أه؟" أخذتْ أسنان نيبرز تَصُرُّ- "أفضِّله، لو كنت مكانك، سيِّدي"، مخاطباً إيَّايَ، "أفضِّله، سأعطيه تفضيلات، البغل العنيد! ما الذي، أتوسَّل إليك سيِّدي، يُفضِّل ألا يقوم به الآن؟".

بارتلبي لم يُحرِّكْ ساكناً.

"سيِّد نيبرز،" قلتُ، "أُفضِّل أن تنسحب في الوقت الحالي".

بدأتُ مؤخراً، بطريقة أو بأخرى، أتورَّط في استخدامٍ لا إراديٍّ لكلمة "أُفضِّل" في جميع أنواع المواقف التي لا تكون مطابقةً تماماً. وأرتعد عندما أُفكِّر أنَّ احتكاكي بالنَّسَّاخ قد أثَّر في قُوَايَ العقلية على نحو خطير. وأيُّ اضطراب عقلي أبعد وأعمق لم يسببه هذا الاحتكاك بعد؟ لم تكن هذه الفكرة دون فعالية في حملي على اتخاذ قرار عاجل.

بينما انسحب نيبرز نَكِداً وعابساً، دنا تيركي بلطف واحترام.

"احتراماتي سيِّدي"، قال، "كنت بالأمس أُفكِّر في بارتلبي هنا،

وأعتقد لو أنَّه فقط يُفضِّل تناول ربع غالون من المِزْر[٢١] الجيد كل يوم فسيساعده ذلك كثيراً في إصلاحه وجعله قادراً على المساعدة في فحص أوراقه".

"هكذا التقطتَ الكلمةَ أنتَ أيضاً؟"، قلتُ مهتاجاً قليلاً.

"احتراماتي، أيَّة كلمة، سيِّدي". سأل تيركي، حاشراً نفسه في المكان الضيق خلف الحاجز، ومُسبِّباً بتصرفه هـــذا احتكــاكي بالنَّسَّاخ. "أيَّة كلمة سيدي؟".

"أُفضِّل أن أُترَك وحيداً هنا"، قال بارتلبي، وكأنه متزعج من إقلاق عزلته.

"*تلك* هي الكلمة، يا تيركي"، قلتُ "*تلك* هي".

"أوه، *يُفضِّل*؟ أوه نعم، كلمة غريبة. أنا نفسي لا أستخدمها أبداً. ولكن، سيِّدي، كما قلتُ، لو أنّه فقط يُفضِّل–".

"تيركي"، قاطعته، "انْسَحِبْ من فضلك".

"أوه بالتأكيد سيِّدي، إذا كنت تُفضِّل أن أفعل".

---

(٢١) شراب شبيه بالجِعَة ولكن مرارته أشد ومحتواه الكحولي أكبر. (المورد الأكبر).

وعندما فَتح البابَ ذا المصراعين لينسحب، لمحني نيبرز وهو جالس إلى طاولته، وسألني عمَّا إذا كنتُ أُفضِّل أن ينسخ صفحة معينة على ورق أزرق أو أبيض. لم يلفظ كلمة أُفضِّل بخبثٍ البتَّة. كان واضحا أنها اندفعتْ من لسانه على نحوٍ لاإراديّ. فكَّرت في نفسي: من غيرِ رَيْبٍ يجب أن أتخلَّص من إنسانٍ معتوهٍ قَلَبَ إلى حدٍّ ما لساني وألسنة ناسخيَّ، إذا لم يكن عقلي وعقولهم. لكنَّني فكَّرت أنَّه من الحكمة ألا أقطع النِّقاش مرَّة واحدة.

لاحظت في اليوم التالي أنَّ بارتلبي لم يفعل شيئاً سوى الوقوف أمام نافذته في تأمُّلاته في الجدار الميِّت. ولمَّا سألته لِمَ لَمْ يكتب، قال إنَّه قد قرَّر ألا يقوم بمزيد من الكتابة.

"لماذا، كيف الآن؟ وماذا بعد؟"، هتفتُ، "ألا تقوم بمزيد من الكتابة؟".

"لا مزيد".

"وما السبب؟".

"ألا ترى السبب بنفسك؟" أجاب بلامبالاة.

نظرتُ إليه بثبات، وأدركتُ أنَّ عينيه تبدوان متعبتين ومكسوَّتين بغشاوة زجاجيَّة. خطر ببالي على الفور أنَّ كدَّه

منقطع النظير في النسخ عند نافذته المعتمـــة في الأســـابيع الأولى القليلة منذ مجيئه قد أضعف بصره مؤقّتاً.

كنتُ متأثراً. قلتُ شيئاً كمواساة له. لَمّحتُ إلى أنه تصــرّف بحكمة من غير ريب بكفّه عن الكتابة إلى حين، وألححتُ عليه أن يُعانِق تلك الفرصة بأخذ تمرين صِحّيّ في الهواء الطَّلْق. لكنه لم يَقُمْ بذلك. بعد أيام قليلة من ذلك، ولّما كــان ناســخاي الآخــران غائبين، ولّما كنتُ في عجلة كبيرة لإرسال رســائل معيَّنــة عــبر البريد، فكّرتُ أنّه لّما لم يكن ثمّة شيءٌ دنيويٌّ يقوم به بارتلبي فإنّه سيكون بالتأكيد أقلّ عناداً من المعتاد، وسيحمل هذه الرسائل إلى مكتب البريد. لكنَّه رفض بصراحة. لذلك، مترعجاً إلى حدّ بعيد، ذهبتُ بنفسي.

مضتْ أيّام ساكنة أخرى. لا أعرف ما إذا كانت عينا بارتلبي تحسَّنتا أم لا. حَسْبَمَا يبدو فكّرتُ أنهما كذلك. لكــنني عنــدما سألته لم يتلطّف بأيّة إجابة. ومهما يحدث لم يكن ليقوم بالنَّســخ. أخيراً، استجابةً لإلحاحي، أعلمني بأنّه قد توقّف عن النَّسخ بشكل دائم.

"ماذا!"، هتفتُ، "افرض أن عينيك ستتحسنان كُلّيَّة –أفضل

عن ذي قبل– ألن تنسخ آنذاك؟"

"لقد توقفتُ عن النسخ"، أجاب وانسلَّ جانباً.

لقد بقي أداة مثبَّتة في مكتبي، بل –إذا كان ذلـــك ممكنـــاً– أصبح أداة مثبَّتة أكثر من قبل. ما الذي كان من الممكن فعله؟ لم يكن ليفعل شيئاً في المكتب: لماذا يبقى هناك؟ بصراحة مَحْضٍ: لقد أصبح حجر رحى معلَّقاً في عنقي[٢٢] الآن، لـــيس فقـــط عـــديم الجدوى كقلادة، ولكن مؤلِمٌ تحمُّلُه. ومع ذلك كنتُ آسفاً مـــن أجله. إنني أقول أقلَّ من الحقيقة عندما أقول إنَّه تسبَّب في إصابتي بالقلق من أجله. لو أنَّه فقط سمَّى قريباً واحداً له أو صديقاً لكنتُ كتبتُ إليه على الفور وألححتُ عليه نقل هذا الرجل المسكين إلى

---

(٢٢)[١] فِي تِلْكَ السَّاعَةِ تَقَدَّمَ التَّلاَمِيذُ إِلَى يَسُوعَ قَائِلِينَ: «فَمَنْ هُوَ أَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ؟» [٢] فَدَعَا يَسُوعُ إِلَيْهِ وَلَدًا وَأَقَامَهُ فِي وَسْطِهِمْ [٣] وَقَالَ: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. [٤] فَمَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مِثْلَ هذَا الْوَلَدِ فَهُوَ الأَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. [٥] وَمَنْ قَبِلَ وَلَدًا وَاحِدًا مِثْلَ هذَا بِاسْمِي فَقَدْ قَبِلَنِي. [٦] وَمَنْ أَعْثَرَ أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِي فَخَيْرٌ لَهُ أَنْ يُعَلَّقَ فِي عُنُقِهِ حَجَرُ الرَّحَى وَيُغْرَقَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ. الإنجيل كما رواه متَّى: الإصحاح ١٨: ١–٦، الكتاب المقدّس الإلكتروني، http://www.jctoday.com/bsoe/onlinebible/index.asp

مأوى ما ملائم. لكنَّه يبدو وحيداً، وحيداً تماماً في الكون، قطعةً من حطام سفينة في عُرْضِ الأطلنطي. أخيراً طغتْ الضرورات المرتبطة بأعمالي على جميع الاعتبارات الأخرى. وبقدر ما أستطيع من لباقة أخبرتُ بارتلبي بأنَّه يجب أن يغادر المكتب في غضون ستة أيام دون شرط. نبَّهته إلى أن يتَّخذ الإجراءات في أثناء فترة الاستراحة بتدبير مثوى ما آخر له. عرضتُ عليه المساعدة في هذه المحاولة إذا ما اتَّخذ هو بنفسه الخطوة الأولى باتِّجاه الانتقال. "وعندما تتركني أخيراً يا بارتلبي"، أضفتُ، "سأحرص على ألا تُغادِرَ من دون تزويدك كلِّيَّة بكل ما تحتاج إليه. ستَّة أيام من هذه الساعة، تذكَّرْ".

بعد انقضاء تلك المدَّة اختلستُ النظر من خلف الحاجز، وعجبًا! بارتلبي كان هناك.

زرَّرتُ معطفي، احتفظتُ بتوازني، تقدَّمتُ ببطء نحوه، لمستُ كتفه وقلتُ: "لقد حان الوقت، يجب أن تغادر هذا المكان، أنا آسف من أجلك، هاك بعض المال، لكنك يجب أن تذهب".

"أُفضِّل ألا"، أجاب، وظهره لا يزال في وضعٍ مواجهٍ لي.

"يجب أن تفعل".

ظلَّ صامتاً.

ثقتي غيرُ محدودة في أمانة هذا الرجل العادية. كثيراً ما أعـــاد إليَّ السِّتة پنسات والجنيهات التي تسقط مني بإهمال على الأرض، ذلك أنني ميَّال إلى أن أكون مهملاً جدّاً في مثل هـــذه الأمـــور التافهة[٢٣]. لذلك فالإجراء اللاحق لن يُعتبَر استثنائيّاً.

"بارتلبي"، قلتُ، "إنني مدين لك باثني عشـــر دولارًا علـــى الحساب، هي ذي اثنان وثلاثون دولارا، العشرون الإضافية لك، هل ستأخذها؟" وحملتُ إليه الأوراق النقدية.

لكنّه لم يُبْدِ أيَّة حركة.

"سأتركها هنا إذن"، واضعاً إيَّاها تحت شـــيء ثقيـــل فـــوق الطاولة. ثمَّ آخذاً قُبَّعتي وعصاي ومتَّجهاً نحو الباب التفتُّ بهدوء وأضفتُ: "بعد أن تنقل أشياءك من هذا المكتب، يـــا بـــارتلبي، ستقفل الباب بالطبع -لأنَّ كل أحد غادر الآن إلا أنـــت- وإذا تفضَّلتَ، فدُسَّ مفتاحك تحت السَّجَّاد لأتمكن من أخذه صباحاً. لن أراك ثانية، لذلك أُودِّعك. وإذا أمكن فيما بعـــد في مكـــان

---

(٢٣) في النص الأصلي:

shirt-buttons: Trivial counters, to categorize unworthy payement. *A Dictionary of Slang and Unconventional English.*

إقامتك الجديد أن أكون ذا خدمة لك فلا تتوقّفْ عن إعلامي من خلال رسالة. الوداع يا بارتلبي، وأتمنى لك الخير".

لكنَّه لم يُجِبْ بكلمة، ومثل آخر عمود في معبد خَرِبٍ ظلّ واقفاً صامتاً ومنعزلاً في وسط الغرفة المقفرة.

بينما كنتُ متوجهاً إلى البيت، بمزاج غارق في التَّفكير، تغلّب غروري على شفقتي. لم أملك إلا أن أتباهى بتصرفي البارع على نحو أستاذيٍّ في التَّخلُّص من بارتلبي. أصف ذلك على نحو أستاذيٍّ، وهكذا يجب أن يبدو لأيٍّ مفكّر غير منفعل. لقد بدا جمال الإجراء الذي اتخذته كامناً في هدوئه المُتقَن. ما كان هناك تنمُّر سوقيٌّ، ولا استئساد من أيٍّ نوع. لا ترهيبٌ غاضبٌ ولا مشيٌ بخُطىً واسعة جيئة وذهاباً عبر المبنى، ولا قذفُ أوامرَ قاسيةٍ لبارتلبي بأنْ يغادر على وجه السرعة مع أمتعته الحقيرة. لا شيء من هذا. ودون توجيه أمر المغادرة إلى بارتلبي بصوت عال -كما قد يفعل متعبقر وضيع- *افترضتُ* أنَّه يجب أن يغادر، وما عليَّ قولُه كان مبنيّاً على الافتراض. وكلما فكَّرتُ أكثر في الإجراء الذي اتَّخذته زاد افتتاني به. على الرَّغم من ذلك، في صباح اليوم التالي، وعند استيقاظي، كانت لديَّ شكوكي. لقد تخلصت بطريقة ما من هيجان غروري. إنَّ أكثر ساعات المرء هدوءاً

وحكمة تكون مباشرة بعد استيقاظه صباحاً. لقد بـــدا الإجـــراء الذي اتَّخذتُه حصيفاً أكثرَ من أيِّ وقت مضى، ولكن نظريّاً فقط. كيف يتحقَّق ذلك على نحو تطبيقي، هنا تكمن العقبة. كان فكرةً جميلةً حقّاً افتراضُ مغادرة بارتلبي، ولكنْ، بالرغم من ذلك، كان ذلك الافتراض ببساطة افتراضي أنا، وليس افتراضَ بـــارتلبي. لم تكن النقطة الرئيسة افتراضي أنه سيتركني، وإنما ما إذا كان هـــو يُفضِّل القيام بذلك. كان رجلَ تفضيلاتٍ أكثر من كونه رجـــلَ افتراضات.

بعد الإفطار توجَّهت إلى وسط البلدة، مناقشاً بـــيني وبـــين نفسي احتمالات *المَع والضِّـــدّ*. في لحظـــة اعتقـــدتُّ أنَّ الأمـــر سيتكشَّف عن فشل مثير للشفقة، وأنني سأجد بارتلبي حيّاً يُرزَق، في مكتبي كالمعتاد، وفي اللَّحظة التَّالية بدا أكيـــداً أنـــني ســـأجد كرسيَّه فارغاً. وهكذا أخذتُ أغيِّر اتجاهي من طرف إلى آخـــر. عند تقاطع شارعي برودواي وكانال **Canal** شاهدت مجموعة من الأشخاص المنفعلين إلى حدٍّ بعيد، والمنخرطين في حديثٍ جِدّيّ.

"أراهن أنه لن يفعل" قال صوتٌ بينما كنتُ أعبُر.

"لن يذهب؟ اتفقنا!"، قلتُ، "أَرِني نقودك".

كنتُ أضع يديَّ على نحو غريزيٍّ في جيبي لأخــرج النقــود عندما تذكَّرت أنَّ ذلك اليوم يوم انتخابات. لم تكن للكلمــات التي سمعتها أيَّة علاقة ببارتلبي، وإنما كانت تتعلق بنجاح أو عــدم نجاح أحد المرشحين لمنصب رئيس البلدية. تخيَّلت في غمرة انكبابي الذهني، إذا جاز التعبير، أنَّ كل مَنْ في شارع برودواي يُشارِكُني انفعالي، وأنهم يناقشونني في نفس السؤال. مضيتُ سعيداً جدّاً بأنَّ ضجيج الشارع قد صفّى شرودي الذهني الوجيز.

كما انتويتُ، وصلتُ أبكر من المعتاد إلى باب المكتب. وقفتُ منصتاً لحظة. لا بدَّ أنَّه ذهب. جرَّبتُ مقبض الباب. كان البــاب مقفلاً. نعم، لقد تمَّ الإجراء الذي اتخذته على أكمل وجه. يجــب أن يكون قد اختفى بالفعل. ومع ذلك حُزْنٌ ما امتزج بهذا: كنتُ آسفاً تقريباً على نجاحي الرَّائع. كنتُ أتحسَّس تحت سَجَّاد الباب باحثاً عن المفتاح الذي كان على بارتلبي أن يضــعه لي عنــدما، مصادفةً، اصطدمتْ ركبتي بلوح محدثةً صوتاً، وعلى إثر ذلــك جاءني صوت من الداخل "ليس بعد، أنا مشغول".

كان بارتلبي.

كنتُ مصعوقاً. وللحظة وقفتُ مثل الرجل الذي، وغليونــه

في فمه، قُتِلَ ذات نهار صافٍ منذ زمن بعيد في فرجينيا، بصاعقة صيفية. عند نافذته الدافئة المفتوحة قُتِلَ، وبقي متدليّاً هنـــاك في النهار الحالم إلى أن لمسه أحدهم وسقط.

"لَمْ تذهب!" هَمْهَمْتُ أخيراً. ولكنْ ممتـــثلاً مجـــدَّداً لتلـــك السطوة العجيبة التي فرضها عليَّ النَّسَّاخ الغامض، والتي بالرَّغم من كل غضبي لم أتمكَّنْ من الإفلات منها تماماً، نزلتُ الدَّرَج ببطء وخرجت إلى الشارع، وبينما كنتُ أمشي حول المبنى فكَّرتُ فيما ينبغي عليَّ فعلُه لاحقاً في هذه الحيرة التي لم يُسمَع بهـــا. لم أكـــن أستطيع أن أطرد الرجل وأدفعه بقسوة، ولم يكن مُجدِيًا أن أناديه بأسماء سيِّئة، ولم يكن استدعاء الشرطة فكرة جيدة، ومع ذلـــك فإن السماح له بالتَّمتُّع بانتصاره الهزيل عليَّ، هذا أيضاً لم أكـــن لأحتمل التفكير فيه. ما الذي كان يمكن فعلُه؟ أو، إذا لم يكن ثمَّة شيءٌ يمكن فعلُه، هل كان هناك أيُّ شيءٍ آخر أستطيع *افتراضـــه* في الموضوع؟ نعم: كما افترضتُ سابقاً على نحو مأمول أنَّ بارتلبي سيُغادِر فإنني الآن قد أفترض على نحو استذكاريٍّ أنَّه قد غـــادر. في التنفيذ الشرعي لهذا الافتراض قد أدخل مكتبي في اســـتعجال كبير، ومتظاهراً بعدم رؤية بارتلبي كُلِّيَّةً أمشي قبالتـــه مباشـــرةً وكأنَّه هواء. مثل هذا الإجراء سيَتَّخِذُ إلى حدٍّ فريدٍ هيئةَ هجـــومٍ

منزليّ. كان من غير المحتمل أن يُقاوِم بارتلبي مثل هذا التطبيق لمبدأ الافتراضات. ولكنْ عند التفكير الثاني بدا نجاح الخطة مشكوكاً فيه إلى حدٍّ ما. اعتزمتُ أن أناقش الموضوع معه مرَّةً أخرى.

"بارتلبي"، قلتُ، داخلاً المكتب بهيئة صارمة لكنْ على نحو هادئ، "أنا مستاء على نحو جادٍّ. أنا متألم يا بارتلبي، لقد نظرتُ إليك بعين الارتياح، وتصوَّرتك رجلاً يتحلَّى بالتهذيب، بحيث إنَّه عند أيِّ مأزق حرِج فإن تلميحاً خفيفاً سيكفي، باختصار كان ذلك تلميحاً. ولكن يبدو أنني مخدوع. لماذا"، أضفتُ، بادئاً على نحو غير متكلّف "إنك لم تلمسِ النُّقودَ بعد"، مشيراً إليها هناك تماماً حيث وضعتها في المساء الفائت.

لم يجب.

"هل ستتركني أم لا؟" سألتُ الآن بانفعالٍ مفاجئ، مُتقدِّماً بالقرب منه.

"أُفضِّل ألا أتركك"، أجاب مُشدِّداً على ألا على نحو لطيف.

"أيُّ حقٍّ دُنيويٍّ تملكه للبقاء هنا؟ هل تدفع إيجاراً؟ هل تدفع ما عليَّ من ضرائب؟ أم أنَّ هذا المكان ملكك؟".

لم يُجب.

"هل أنت مستعدٌّ لتذهب إلى الكتابة الآن؟ هل تعافتْ عيناك؟ هل تستطيع أن تنسخ لي ورقة صغيرة هذا الصباح؟ أو تساعد في فحص سطور قليلة؟ أو تخطو باتِّجاه مكتب البريد؟ بكلمة، هل ستقوم بأيِّ شيء لتُعطِيَ معنىً لرفضك تَرْكَ المبنى؟".

انسحب بصمت إلى صومعته.

كنتُ في حالة من الاستياء العصبيِّ لكنَّني فكَّرتُ أنه من الحكمة أن أمنع نفسي في الوقت الحاضر عن إبداء انفعالات أخرى. كنتُ وبارتلبي وحدَنا. تذكَّرتُ مأساة آدمز Adams التَّعِسِ، وكذلك الأكثرَ تعاسةً كولت Colt في المكتب المنعزل لهذا الأخير[٢٤]، وكيف أنَّ المسكين كولت، كون آدمز قد أثار سخطه على نحو مُروِّع وسمح لنفسه بأنْ تُستثار على نحو وحشيٍّ

(٢٤) حادثة قتل مثيرة اشتهرت في نيويورك فيما بين عامي ١٨٤١ و١٨٤٢، وفيها قتل جون كولت دائنَه صمويل آدمز مستخدماً فأساً، ثم حاول إخفاء الجثة عن طريق شحنها بحراً إلى نيو أورليانز New Orleans. وبالرغم من أنَّ الالتماس الذي تقدَّم به كولت أنه ارتكب الجريمة دفاعاً عن النفس، وبالرغم من أنه قد لاقى دعماً شعبياً كبيراً، إلا أنه أُدين بالقتل. لاحقاً انتحر كولت في زنزانته قبل دقائق من تنفيذ حكم الإعدام عليه في ساحة السجن التي احتشدت بالمتحمسين والباحثين عن الإثارة. (JHP).

وأحمق، اندفع على حين غِرَّة نحو فعله المهلك، فِعْلٍ ما كان يمكن لأيِّ إنسان بالتَّأكيد أن يستهجنه أكثرَ من الفاعل نفسه. كثيراً ما خطر في بالي في أثناء تأمُّلاتي في الموضوع أنَّ تلك المشاحنة لو حدثت في شارع عام أو في مسكن خاص ما كانت لتنتهي كما حصل. كان ظرف البقاء وحيداً في مكتب منعزل، في الطابق العلوي، أو في مبنى غير مبارَك كُلِّيَّةً بارتباطات بشرية أليفة – مكتبٍ غير مفروش بالسَّجَّاد، بلا شكٍّ، ذي مظهر مُغبَرٍّ ومنْهَكٍ– لا بدّ أن الوضع كان هكذا، كان ذلك الظرف هو ما ساعد في تعزيز اليأس النَّزِقِ لكولت السيِّئ الطَّالِع.

ولكنْ عندما ثار داخلي امتعاضُ آدمَ[٢٥] Adam وأغراني فيما يتعلق ببارتلبي صارعتُه ونبذتُه، كيف؟ لماذا؟ ببساطة من خلال تذكُّر الوصيَّة الإلهيَّة: "أوصيكم وصية جديدة، أن تحبوا بعضكم بعضاً"[٢٦]. نعم، ذلك ما أنقذني. وبصرف النظر عن الاعتبارات الأخلاقية، كثيراً ما يكون الإحسان بشكل كبير مبدأً حكيماً

(٢٥) آدم الذي جلب الخطيئة للعالم بعصيانه كلمة الرَّب وأكله من الشجرة المحرَّمة. (المترجمة).

(٢٦) الإنجيل كما رواه يوحنا، الإصحاح ١٢:١٥، الكتاب المقدَّس الإلكتروني، http://www.jctoday.com/bsoe/onlinebible/index.asp

ومتعقّلاً، حارساً عظيماً لمن يمتلكه. يقترف البشر القتل بسبب الغيرة، وبسبب الغضب، وبسبب الكره، وبسبب الأنانية، وبسبب الكبرياء الرُّوحيَّة، ولكنْ ما سمعتُ بإنسان اقترف قتلاً وحشيّاً بسبب الإحسان. آنئذ، الصالح الشخصيُّ فحسب ينبغي أن يَحُثَّ جميع الكائنات على الإحسان والخير، إذا لم يكن هناك دافع أفضل ممكن تطويعه خاصة لدى البشر الحادِّي المزاج. على أيَّة حال، بالنسبة إلى الحادثة التي نحن بصددها، فقد جاهدتُ لكي أتخلص من مشاعري الساخطة تُجاه النَّسَّاخ من خلال تفسير تصرُّفه. المسكين، المسكين! فكَّرتُ، إنَّه لا يقصد أيَّ شيء، بالإضافة إلى أنَّه رأى أوقاتاً عصيبة ويجب التَّساهل معه.

حاولت أيضاً أن أُشغِلَ نفسي فوراً، وفي نفس الوقت أنْ أُواسِيَ قنوطي. حاولت أن أتخيَّل أنه في فترة الصباح، في مثل هذا الوقت كما سيلائمه، سيظهر بارتلبي طوعاً وبحُرِّيَّة من صومعته وسيتقدَّم في مارشٍ عسكريٍّ باتِّجاه الباب. لكنْ لا. أقبلتِ الساعة الثانية عشرة والنصف، بدأ وجه تيركي بالتَّوهُّج، وقَلَبَ مِحْبَرته، وأصبح صاخباً بشكل عام، انخمد نيبرز في سكينة ولطف، وأخذ جنجر نت يمضغ تفاحته النهارية بصوت طاحن، بينما بقي بارتلبي واقفاً عند نافذته في أحد تأمُّلاته العميقة في

الجدار الميِّت. هل يُصدَّق ذلك؟ هل يجب عليَّ أن أعترف؟ غادرت المكتب تلك الظهيرة دون قول كلمة واحدة له.

مضت بضعة أيام تصفّحت خلالها قليلاً، في أوقات الفراغ، "إدواردز في الإرادة" و"بريستلي في الحتمية"(٢٧). وتحت تلك الظروف أحدثت تلك الكتب شعوراً مفيداً. تدريجيّاً بدأتُ أتحوَّل إلى الاقتناع بأنّ جميع متاعبي هذه المتعلقة بالنَّسَّاخ إنّما هي محفورة على اللّوح المحفوظ، وأنّ الحكمة الإلهيَّة فرضت عليَّ بارتلبي لغرضٍ ما غامضٍ ليس باستطاعة مجرد كائن فانٍ مثلي إدراكه. نعم، يا بارتلبي، ابْقَ هناك خلف حاجزك، فكّرتُ، لن أعود لمضايقتك مجدَّداً، أنت غيرُ مؤذٍ وغيرُ مزعجٍ كأيٍّ من هذه الكراسي العتيقة. باختصارٍ لا أشعر بخصوصيَّتي أبداً كما أشعر بها عندما أعرف أنك هنا، على الأقلّ أراها، أُحِسُّها، أدرك الغرض القَدَرِيَّ لحياتي. أنا راضٍ. قد تكون لدى الآخرين أدوارٌ أكثرُ نبالةً

---

(٢٧) يرفض اللاهوتيّ الأمريكي جوناثان إدواردز (١٧٠٣-١٧٥٨) في كتابه "الإرادة الحرَّة" فكرةَ الإرادة الحرَّة، ويناقش عقيدة القضاء والقدر الكالڤينية، بينما يُعارِض العالم الإنجليزيُّ جوزيف بريستلي (١٧٣٣-١٨٠٤)، مكتشف الأكسجين، مبدأ الكالڤينية، ويناقش الحتمية الفلسفية على أساس قوانين طبيعية ذات سبب وأثر. (JHP).

ليُمثّلوها، لكنَّ مُهمَّتي في هذا العالم، يا بـــارتلبي، هـــي أن أُزوِّدك بمكتب للمدَّة التي تراها ملائمة لبقائك.

أعتقد أنَّ هذه الحالة المزاجية الحكيمة السعيدة كان يمكن لها أن تستمر لولا تلك الملاحظات غير المتعاطفة وغير المتساهلة التي أقحمها عليَّ أصدقائي في المهنة الذين كانوا يزورون مكتبي. لكن هذا ما يحدث غالباً: أنَّ الخلاف المستمر مع أشـــخاص أجـــلاف يرهق في الأخير أفضل قرارات أولئك الأكثر سخاء. وبالرغم من ذلك، وما لا ريب فيه، عندما فكّرت مليّاً في الأمر، أنَّه لم يكـــن غريباً أن يستوقف المظهرُ الغريبُ لبارتلبي غيرُ القابـــل للتَّفســـير الأشخاصَ الداخلين إلى مكتبي، ومن ثمَّ يُغـــريهم بإلقـــاء بعـــض الملاحظات الخبيثة فيما يتعلق به. يحدث أحياناً أن يزور مكتبي محامٍ لديه عمل وإيّاي، وحينما لا يجد هناك أحداً إلا النَّسَّاخ فإنه يأخذ على عاتقه أن يحصل على بعض معلومات دقيقة منه تتعلق بمكان تواجدي، لكنَّ بارتلبي، دون مبالاة بكلامه عديم الجدوى، يبقـــى واقفاً بلا حِراكٍ في منتصف الغرفة. لذلك بعد تأمله في تلك الحال بعض الوقت يُغادِر المحامي ليس أكثرَ علماً منه عندما أتى.

وأيضا عندما تكون هناك قضية للمراجعة، والغرفـــة ممتلئـــة بالمحامين والشهود، والعمل يمضي بسرعة، ويكون حاضراً هنـــاك

أحد السادة القانونيين المتعمقين في انشغالهم، يحـــدث أن يـــرى بارتلبي عاطلاً تماماً عن العمل، فيطلب منه أن ينطلق إلى مكتبـــه (مكتب السَّيِّد القانونيّ) ويجلب له بعض الأوراق. بناءً على ذلك يرفض بارتلبي بهدوء، ويظل عاطلاً أيضاً كما كان. بعدها يُرسِل المحامي نظرةً مُحدِّقةً واسعةً، ثم يلتفت إليَّ، وما الذي يمكنني قولُه؟ أخيراً صرت مدركاً أنه ضمن دائرة معارفي في المهنة أخذتْ تنتشر همسةُ استغرابٍ لها صلة بالكائن الغريب الذي أحـــتفظ بـــه في مكتبي. أزعجني ذلك كثيراً. وعندما فاجأتني فكرة إمكانيـــة أن يعيش طويلاً، ويحتلَّ مبنايَ، ويُنكِرَ عليَّ سلطتي، ويُربِك زُوَّاري، ويُعرِّض سمعتي المهنية للعار، ويُسبِغ كآبة عامة على مبناي؛ محافظاً على روحه وجسده حتى النهاية عبر مدخراته (ذلك أنه بلا شك لا ينفق سوى نصف عُشْر دولار في اليوم)، وقد يُعمَّر في النهايـــة أكثر مني، ويدَّعي امتلاك مكتبي بحق بقائه الدائم، عندما أخـــذت جميع هذه التوقعات المظلمة تتزاحم فوقي أكثر وأكثر، وعنـــدما أخذ أصدقائي يتدخَّلون عَنْوَةً باستمرار بملاحظاتهم القاسية ضـــد الشبح في غرفتي؛ اهتاج في داخلي تغيُّـــر عظـــيم. قـــرَّرت أن أستجمع كل قُوايَ، وأن أتخلص للأبد من هذا الكابوس الذي لا يُطاق.

ومع ذلك، قبل التفكير مليّاً في أيَّة خطة معقَّدة ملائمة لهـــذه الغاية، اقترحتُ أوَّلاً على بارتلبي ببساطة المغادرة النهائية اللائقة. بنبرة هادئة وجادَّة أودعتُ الفكرةَ تفكَيره الحذر النَّاضج. ولكنْ، بعد استغراقه ثلاثة أيام في التأمُّل فيها، أعلمني بأن قراره الأصليَّ بقي نفسه، باختصارٍ أنَّه لا يزال يُفضِّل أن يُقيمَ معي.

ماذا أفعل؟ قلتُ لنفسي وأنا أُزَرِّرُ مِعْطفي حتى آخر زِرّ. ماذا أفعل؟ ماذا يجب أن أفعل؟ ما الذي يقوله الضمير وعليَّ أن أفعله مع هذا الرجل، أو بالأحرى الشبح؟ أن أُخلِّص نفسي منه، يجب، أن يذهب، سيفعل، لكن كيف؟ لن تدفعه بقسوة، هذا الهالـــك المسكين الشاحب المستسلم، لن تدفع بقسوة إلى خـــارج بابـــك مخلوقاً عاجزاً كهذا. لن تهين نفسك بارتكاب مثل هذه الوحشيَّة؟ لا، لن أفعل، لا أستطيع فعل ذلك. أُفضِّل أن أتركه يحيا ويمـــوت هنا، ثمَّ أطمُرَ بقاياه في الجدار. ما الذي ستفعله إذن؟ بالرَّغم مـــن كل ملاطفاتك فإنه لن يتزحزح. الرُّشَى يتركها تحت أوراقك فوق طاولتك، باختصار، من الواضح تماما أنَّه يُفضِّل أنْ يتشبَّث بك.

إذن شيء صارم، شيء غيرُ عاديٍّ يجب أن يُفعَل. ماذا! مـــن غير ريب إنك لن تسمح بأن يمسك شرطي بخناقه ويودع وجهَـــه الشاحبَ البريءَ السجنَ العموميّ؟ وعلى أيِّ أساس يمكنـــك أن

تدبِّر لحدوث شيء كهذا؟ متشرِّد، هل هو كذلك؟ مـاذا! هـو متشرِّد، هائم، يرفض أن يتزحزح؟ لأنه لن يكون متشرِّداً فإنـك تسعى لأن تعتبره متشرداً. إن ذلك سخيف جدّاً. ليس ثمّة مـن طرق واضحة للمساعدة، إنه هنا لديَّ. أخطئ مرة أخرى: فهـو بما لا يدع مجالاً للشك يعيل نفسه، وذلك هو الـدليل الوحيـد القاطع على أن أيَّ رجل باستطاعته إظهار ما لديه من طرق للقيام بذلك. لا مزيد إذن. ولأنه لن يتركني فإنني يجـب أن أتركـه. سأُغيِّر مكتبي، سأنتقل إلى مكانٍ آخر، وأعطيه إشعاراً واضـحاً بأنني إذا وجدته في مبنايَ الجديد فإنني سـأقيم دعـوى ضـده باعتباره منتهكاً عموميّاً.

متصرفاً وَفْقاً لذلك خاطبته في اليوم التالي: "إنني أجد هـذا المبنى بعيداً جدّاً عن المجلس البلديِّ والهواءَ فيه فاسداً. بكلمـة، انتويتُ نقل مكتبي الأسبوع المقبـل، ومـا عـدتُ بحاجـة إلى خدماتك. أقول لك ذلك الآن حتى تبحث عن مكان آخر".

لم يُعْطِ أيَّة إجابة، ولا شيء آخر قيل.

في اليوم المحدد استأجرت عرباتٍ ورجالاً تقدَّموا نحو مبنـايَ الذي ليس فيه سوى أثاثٍ قليل، وكلُّ شيءٍ تمَّ نقله في سـاعات

قليلة. في أثناء ذلك ظلَّ النَّسَّاخ واقفاً خلف الحاجز الذي كان آخرَ ما أمرتُ بنقله. لقد سُحِبَ، وبطيِّه مثلَ كتابٍ ضخمٍ خلَّف بارتلبي وراءه واقفاً بلا حِراك في غرفة عارية. وقفتُ عند المَدخل أرقُبُه للحظة، بينما أخذ شيءٌ في داخلي يُوبِّخُني بقسوة.

دخلتُ مرَّةً أخرى ويدي داخل جيبي -و- وقلبي في فمي.

"وداعاً بارتلبي، إنني ذاهب، وداعاً، وليحفظْكَ الإله، وخُذْ هذا"، طارحاً شيئاً في يده. لكنه وقع على الأرض، وبعد ذلك - كان غريباً أن أقول- انتزعتُ نفسي منه ذلك الذي طالما تمنَّيتُ التَّخلُّص منه.

في مقرِّي الجديد بقيتُ يوماً أو يومين أقفل الباب وأجفل من كل خطوة في الممرات. كنتُ عندما أعود إلى مكتبي بعد غياب قصير أقف عند العتبة لحظةً وأُنصِتُ بانتباهٍ قبل إدخال المفتاح. لكنَّ هذه المخاوف كانت غيرَ ضروريَّة. بارتلبي لم يقترب منِّي أبداً.

اعتقدتُ أن كلَّ شيءٍ مضى بشكل جيِّد، إلى أن زارني غريبٌ ذو هيئة مضطربة، وسألني عمَّا إذا كنتُ الشَّخصَ الذي كان

مؤخراً يشغل المكتب في المبنى رقم ـــ[٢٨] في وول ستريت.

مملوءاً بالتَّوجُّس أجبتُ بأنني أنا.

"إذن يا سيِّدي"، قال الغريب الذي ثبت أنه محـــام، "أنـــت مسؤولٌ عنِ الرجل الذي تركته هناك. إنه يرفض القيام بالنَّسخ، يرفض فعلَ أيِّ شيء، يقول إنه يُفضِّل ألا، ويرفض ترك المبنى".

"أنا آسفٌ جدّاً يا سيِّدي"، قلتُ بهدوءٍ مزعومٍ، ولكنْ برجفةٍ داخلي، "لكن، في الواقع، الرجل الذي أشرتَ إليـــه لا شـــيءَ بالنِّسبة إليَّ، لا علاقة لي به وليس صبيّاً يعمل لـــديَّ لـــتُحمِّلني مسؤوليته".

"باسم الرَّحمة من هو؟".

"إنني بالطبع لا أستطيع إخبارك. لا أعرف شيئاً عنه. وظَّفتـــه في ما مضى ناسخاً، لكنه لم يَقُمْ بأيِّ شيء لي منذ بعض الوقت".

"سأُسوِّي أمره إذن، عِمْتَ صباحاً سيِّدي".

مضت بضعة أيام ولم أسمع أيَّ شيء آخر، وعلى الرَّغم مـــن أنني كثيراً ما أُحِسُّ ضميري يَحثُّني على زيـــارة المكـــان ورؤيـــة

---

(٢٨) هكذا في الأصل.

بارتلبي المسكين، إلا أنَّ شعوراً بالغثيان لا أعرف كنهه يمنعني.

حتَّى هذا الوقت انتهى كلُّ شيءٍ يخُصُّه، فكَّرتُ أخيراً، عندما لأسبوع آخر لم أتلقَّ اتصالاً آخر. لكنْ، في اليوم التـــالي، بينمـــا كنت أدخل مكتبي وجدتُ عِدَّةَ أشخاص ينتظرون عند البـــاب وهم في حالة شديدة من الاهتياج العصبيّ.

"ذاك هو الرجل، ها هو قد جاء" صاح رئيسهم الذي عرفتُ أنه المحامي الذي زارني وحده سابقاً.

"يجب أن تبعده، سيِّدي، في الحال"، صاح شخص بدين بينهم مُتقدِّماً نحوي عرفت أنه مالك المبنى رقم ـــ[٢٩] في وول ستريت. "هؤلاء السادة، المستأجرون لم يعودوا قادرين على تحمُّل ذلـــك، السيد بِ B"، مشيراً إلى المحامي، "أخرجَه من مكتبه، وهو يُصِـــرُّ الآن على ملازمة المبنى عموماً، جالساً على درابزين الـــدرج في النهار، ونائماً عند المدخل في اللَّيل. كل شخص قَلِقٌ، الموظفـــون يتركون المكاتب، وهناك مخاوف من إثارة شغب رُعاع، يجـــب أن تفعل شيئاً، ودون تأخير".

كنت مذعوراً من كل هذا الوابل، وتقهقرت أمامه، وكنـــت

---

(٢٩) هكذا في الأصل.

قد حبست نفسي بسرور في مقرِّي الجديد. عبثاً أصرُّ علـــى أن بارتلبي كان لا شيء بالنسبة إليَّ، ولا أكثرَ من أيٍّ شخص آخر. عبثاً، كنت آخر شخص معنيٍّ به، وأجبروني على التَّحدُّث عـــن هذا الحدث المُروِّع. خائفاً، ذلك الحين، من أن أُفضَح في الصحف (كشخص حاضر مهدَّد على نحو غامض)، فكّـــرت في الأمـــر، وقلتُ في النهاية إنَّه إذا سمح لي المحامي بمقابلة خاصة للنَّسَّـــاخ في مكتبه (مكتب المحامي) فإنني سأبذل في تلك الظهيرة كل جهدي لأُخلّصهم من الإزعاج الذي يشكون منه.

صعدتُ الدَّرَجَ باتِّجاه مثوايَ القديم. كان بـــارتلبي يجلـــس بصمت على الدّرابزين عند الدَّرَج.

"ما الذي تفعله هنا يا بارتلبي؟" قلت.

"أجلس على الدّرابزين،" أجاب بلطف.

حرّكْته إلى داخل مكتب المحامي الذي تركنا آنذاك.

"بارتلبي"، قلت، "هل أنت مدرك أنك سبب بليَّةٍ كـــبيرة لي بإصرارك على شغل المدخل بعد طردك من المكتب؟".

لا ردّ.

"الآن شيءٌ من اثنين يجب تنفيذه: إمَّا أن تفعل شيئاً وإمَّــا أن يُفعَل لك شيء. ما نوع العمل الذي ترغب القيامَ به؟ هل ترغب في العمل نسَّاخاً مرَّةً أخرى مع شخص ما؟".

"لا، أُفضِّل ألا أُحدِثَ أيَّ تغيير".

"هل ترغب في العمل بائعاً في محلٍّ للسِّلع الجافَّة؟".

"في ذلك تقييد شديد. لا، لا أرغب في أن أكون بائعاً، لكنْ ليس لديَّ اهتمام خاص".

"تقييد شديد"، صحتُ، "لماذا تجعل نفســك مُقيَّــداً كــلَّ الوقت!".

"أُفضِّل ألا أكون بائعاً" أجاب كأنه يُنهي ذلك الأمر الطَّفيف على الفور.

"هل يُناسِبُك عمل نادل في حانة؟ ليس ثَمَّة إرهاق للبصــر في ذلك".

"لا أرغب في ذلك أبداً، بالرغم من أنني، كما قلتُ من قبل، ليس لديَّ اهتمام خاص".

إسهابُه غيرُ العاديِّ شجَّعني. عدتُ إلى المساومة.

"حسنا إذن، هل ترغب في التَّنقُّل عبر المدينة لجمعِ مبالغَ دفعِ الفواتير للتُّجَّار؟ ذلك سيُحسِّن من صحتك".

"لا، أُفضِّل أن أقوم بشيء آخر".

"ماذا إذن عن الذَّهاب مُرافِقاً إلى أوروبا لتسلية بعض السادة الصغار بمحادثاتك، هل يناسبك ذلك؟".

"لا أبداً. لا يستوقفني أيُّ شيءٍ مُحدَّد في ذلك. أريد أن أكون ساكناً، لكنْ ليس لديَّ اهتمام خاصّ".

"لتَبْقَ ساكناً إذن"، صحتُ الآنَ فاقداً كل صبر، وللمرَّة الأولى في كل علاقتي الساخطة به أتلاشى تماماً في غضب شديد. "إذا لم تتركْ هذا المبنى قبل الليل سأشعر بأنِّي مُلزَم حقّاً... إنِّي ملزم.. بـ..بـ.. بترك المبنى بنفسي!". اختتمتُ عبارتي بالأحرى على نحو سخيف، غيرَ عارفٍ أيَّ تهديد ممكن يجعلني أُكرِه سكونه على الإذعان. مستنفدا جميع الجهود كنتُ على وشك مغادرته عندما خطرت في بالي فكرة، لم تكن مكبوتة كُلِّيَّة سابقاً.

"بارتلبي"، قلت بألطف نبرة استطعت التظاهر بها تحت ظروف مثيرة كهذه، "هل تذهب معي الآن إلى البيت – ليس إلى

مكتبي ولكنْ إلى مسكني- وتبقى هناك إلى أن نُقرِّر ترتيب مكان مريح لك في وقت فراغنا؟ تعال، لنبدأِ الآن، في الحال".

"لا، في الوقت الحاضر أُفضِّل ألا أُحدِثَ أيَّ تغيير أبداً".

لم أُجِبْ بشيء، ولكنني متجنِّباً تماماً كل شخص بفجائيَّةِ وسرعةِ انطلاقي اندفعتُ من المبنى، صعدتُ وول ستريت باتِّجاه برود واي، ثم قافزاً في أوَّل أومنيبوس[٣٠] سرعان ما ابتعدتُ عن أيِّ تعقُّب. حالما عاودني الهدوء أدركتُ بوضوح أنني الآن قمتُ بكل ما كان بوسعي القيام به، فيما يتعلق بمطالبات المالك والمستأجرين، وفيما يتصل برغبتي وإحساسي بالواجب من أجل مساعدة بارتلبي وحمايته من أيّة مضايقة فظة، على حدٍّ سواء. لقد كنتُ أجاهد لأكونَ خالياً كلِّيَّةً من الهمِّ، ولأكونَ هادئاً، وقد برَّر لي ضميري هذه المحاولة، بالرَّغم من أنها في الواقع لم تكن ناجحة تماماً كما تمنَّيت. كنتُ خائفاً جدّاً من أن يتعقّبني المالك السَّاخط والمستأجرون الغاضبون، لذلك مُسلِّماً أعمالي لنيبرز اتجهتُ لبضعة أيام إلى الجزء المرتفع من البلدة وعبر الضواحي مستقلاً عربتي، ثم عبرتُ في جيرسي سيتي وهوبوكن، وقمتُ بزيارات

---

(٣٠) عربة لنقل الرّكاب ذات أربع عجلات. (JHP).

سريعة إلى مَنْهاتن ڤيل وأستوريا. في الواقع عشتُ ذلك الوقت متنقلاً بعربتي تقريباً.

عندما دخلتُ مكتبي مرَّةً أخرى، وياللعجب، كانت هناك على الطاولة ملاحظة من المالك، فتحتها بيدين مرتجفتين. كانت تُعلِمُني أنَّ الكاتبَ أرسلَ إلى الشرطة لتنقُل بارتلبي إلى سجن تومز باعتباره متشرِّداً. عِلاوةً على ذلك، لأنني كنت أعرفه أكثر من أيٍّ شخص آخر، طلب مني الكاتب أن أظهر في ذلك المكان لأُقدِّم إفادة مناسبة بالحقائق. كان لهذه الأنباء تأثيرٌ متضاربٌ عليّ. كنت ساخطاً في البداية، لكنَّني وافقت في النهاية تقريباً. التَّصرُّف الفعَّال والموجز للمالك قاده إلى تبنِّي إجراء لا أعتقد أنني كنت سأتخذه بنفسي، ومع ذلك، كملاذ أخير تحت مثل هذه الظروف الغريبة، بدا أنه الإجراء الوحيد.

كما عرفتُ فيما بعد، عندما أُخبِر النَّسَّاخ المسكين أنه يجب أن يؤخذ إلى تومز، لم يُبْدِ أدنى اعتراض، بل أذعن بصمت بطريقته الشَّاحبة السَّاكنة.

انضمَّ بعض المتفرجين الشفوقين والفضوليين إلى الموكب يترأسهم أحد الحُرَّاس شابكاً ذراعه بذراع بارتلبي، وتقدَّم الموكبُ

الصَّامتُ أرتالاً عبر ضجيج وحرارة وبهجة الشَّارع الهادر في الظَّهيرة.

في اليوم نفسِه الذي تلقَّيتُ فيه الملاحظة ذهبتُ إلى تومز، أو، لأتحدَّثَ على نحو ملائم أكثر، إلى مبنى العدالة. بعد أن بحثتُ عن الموظف المناسب وضَّحتُ غرض زيارتي، وأُبلِغتُ أنَّ الشخص الذي وصفته موجود بالفعل. ثمَّ أكَّدتُ للموظَّف أنَّ بارتلبي رجل مخلص تماماً ويستحقُّ الشَّفقة كثيراً، بالرَّغم من أنَّه غريب الأطوار على نحو غير قابل للتَّعليل. سردتُّ كلَّ ما أعرفه، واختتمتُ باقتراح فكرة السَّماح له بالبقاء في حجز مُتساهِل قَدْرَ المستطاع إلى أن يكون هناك شيء أقلُّ قسوةً يمكن فعلُه، بالرغم من أنني في الواقع أكاد لا أعرف ما الذي يمكن فعله. على أيَّة حال إذا لم يكن ثمَّة شيء يمكن تحديدُه فيجب أن يستلمه الملجأ. بعد ذلك رجوتُ أن يُسمح لي بإجراء مقابلة.

كونه لا يحمل تهمة مخزية، وهادئاً، وغيرَ مؤذٍ إلى حدٍّ بعيد، في جميع الأحوال فقد سمحوا له بالتَّجوُّل بحُرِّيَّة هنا وهناك في السجن، وخاصة في الأفنية المكسوَّة بالعشب هناك. وهكذا وجدته هناك يقف وحيداً تماماً في أكثر الأفنية هدوءاً، وجهُه باتِّجاه الجدار الشَّاهق، بينما من حوله، من بين الشُّقوق الضَّيِّقة لنوافذ السِّجن،

فكّرتُ أنّني رأيت عيون القتلة واللُّصوص تُحدِّق فيه.

"بارتلبي!".

"أعرفك" قال دون أنْ ينظرَ حواليه، "ولا أريد أن أقول لك شيئاً".

"لم يكن أنا مَنْ أتى بك إلى هنا يا بارتلبي"، قلتُ، وقد تألمتُ على نحو حادٍّ من ريبته الضِّمنيَّة. "وبالنسبة إليــك ينبغــي أن لا يكون هذا مكاناً رديئاً. لا شيء يدعو إلى لومك كونك موجوداً هنا. ثم انظرْ، إنَّه ليس مكاناً كئيباً كما قد يظن المرء. انظرْ، هناك السماء، وهنا العشب".

"أعرف أين أنا"، أجاب، ولكنه لم يكن ليقل شــيئاً آخــر، ولذلك تَرَكْتُه.

بينما كنتُ أدخل الرُّواق دنا مني رجل بدين له هيئة جــزَّار ملتفٌّ بمئزر، وهزَّ إبهامه فوق كتفه قائلاً: "هل ذاك صديقك؟".

"نعم".

"هل يريد أن يموت جوعاً؟ إذا كان كذلك دَعْهُ يحيــا علــى طعام السِّجن، هذا كل ما في الأمر".

"مَنْ أنت؟"، سألتُ، وأنا على معرفة بكيفية الاستفادة من شخص كهذا يتحدَّث على نحو غير رسميٍّ في مكان كهذا.

"أنا مموِّن الطَّعام، يؤجرني السادة الذين لديهم أصدقاء هنا لتزويدهم بشيء جيد للأكل".

"هل هذا صحيح؟"، قلت، ملتفتاً نحو السَّجَّان.

فقال إنَّ ذلك صحيح.

"حسنا، إذن"، قلتُ، واضعاً بعض العملات الفضية في يدي مموِّن الطعام (كما كانوا يدعونه). "أُريدُك أن تُوْلِيَ اهتماماً خاصّاً بصديقي هناك، أحضرْ له أفضل غداء يمكنك الحصول عليه. ويجب عليك أن تكون لطيفاً معه قدر الإمكان".

"قدِّمني إليه، ألن تفعل؟"، قال مموِّن الطعام ناظراً إليَّ وعليه سيماءُ تقول إنَّه كان متلهفاً لفرصة تقديم نموذج عن سلالته.

فكَّرتُ بأن ذلك سيُحقّق فائدةً للنَّسَّاخ، فقبلتُ، ثمَّ سألت مموِّن الطعام عن اسمه وتوجهت وإيّاه إلى بارتلبي.

"بارتلبي، هذا صديق، ستجده مفيداً جدّاً لك".

"خادمكم سيِّدي، خادمكم"، قال مموِّن الطعام مؤدِّياً التَّحيَّة

بانحناءة من خلف مئزره. "أتمنى أن تجدوا المكـان لطيفـاً هنـا، سيِّدي، غرف فسيحة وهادئة، سيِّدي، أتمنى أن تبقوا معنا بعض الوقت، سنحاول أن نجعل ذلك ملائماً. ماذا تريـدون للغـداء اليوم؟".

"أُفضِّل ألا أتغدَّى اليوم" قال بارتلبي وهو ينصرف. "إن ذلك لن يُلائمني، لستُ معتاداً على الأغْديَة". قائلاً ذلك تحرَّك ببطءٍ إلى الجانب الآخر من السِّياج، واتَّخذ وضعاً بمواجهـة الجـدار الميِّت.

"كيف هذا؟" قال مموِّن الطعام مخاطباً إيَّـايَ وهـو يُحـدِّق بذهول فيّ. "إنَّه غريب، أليس كذلك؟".

"أعتقد أنَّه مُشوَّش قليلاً" قلتُ بحزن.

"مشوَّش؟ مشوَّش، أليس كذلك؟ حسـنٌ، قسـماً بشـرفي اعتقدت أنَّ صديقك هذا سيِّدٌ مُزوِّر، إنهـم دائمـاً شـاحبون ومُهذَّبون، هم، المزوِّرون. لا أستطيع تمالك نفسي مـن الشَّـفقة عليه، لا أستطيع سيِّدي. هل تعرف مونرو إدواردز[٣١] Monroe

(٣١) مونرو إدواردز (١٨٠٨-١٨٤٧): محتال ومزوِّر لاقت محاكمته في عام ١٨٤٢ حماساً شعبيّاً كبيراً في نيويورك. (JHP).

Edwards؟ أضاف على نحو مؤثر، وتوقّف. ثمّ، واضعاً يده على كتفي بشكل يُرثَى له، تنهَّد، "مات بالسُّلّ في سينج–سينج[٣٢] Sing-Sing. إذن لم تعرف مونرو؟".

"لا، لم تكن لديَّ معرفة اجتماعيَّة أبداً بأيِّ مُزوِّر. لكنني لا أستطيع الوقوف أكثر. اعتنِ بصديقي هناك. لن تخسر شيئاً. سأراك مجدَّداً".

بعد مضيٍّ أيام قليلة على ذلك حصلتُ مرَّةً أخرى على إذن بالدخول إلى تومز، وذهبت عبر الأروقة باحثاً عن بارتلبي، لكني لم أجده.

"رأيته خارجاً من زنزانته منذ وقت ليس ببعيد"، قال سجَّان، "ربّما ذهب للتَّسكُّع في الفِناء".

وهكذا سرتُ نحو ذلك الاتِّجاه.

"هل تبحث عن الرَّجل الصَّامت؟"، قال سجَّان آخرُ مرَّ من أمامي، "هنالك يستلقي، نائم في الفناء هناك. لم تمرَّ عشرون دقيقة منذ رأيته مستلقياً".

---

(٣٢) سجن يقع في بلدة أوسينينج Ossining الواقعة على نهر هدسون شمال نيويورك، وقد أُسس عام ١٨٢٥. (JHP).

كان الفناء هادئاً تماماً. لم يكن مسموحاً للسُّجناء العموميِّين بالوصول إليه. كانت الجدران المحيطة ذاتُ السَّماكة المذهلة تحجب عنهم جميع الأصوات خلفهم. كان البناء المصريُّ الطَّابع يثقل عليَّ بكآبته، غير أنَّ هناك عشباً ناعماً محبوساً ينمو تحت القدم. وبالرَّغم من كون فناء السجن يشبه قلب الأهرامات الخالدة إلا أن بذور الأعشاب التي تلقيها الطيور أخذت تنمو بين الشقوق بفعل سحر عجيب.

رأيت بارتلبي الضائع جاثماً على نحو غريب عند قاعدة الجدار، ركبتيه مرفوعتين، ومستلقياً على جانبه، رأسه يُلامس الحجارة الباردة، لكن لا شيء تحرَّك. توقَّفتُ، ثم اقتربتُ منه، انحنيتُ ورأيتُ أن عينيه المعتمتين كانتا مفتوحتين، وخلاف ذلك كان يبدو نائماً بعمق. شيءٌ ما حثَّني على ملامسته. تحسَّستُ يده فإذا وخزةُ رعشةٍ تسري في ذراعي ثم إلى أسفل عموديَ الفقريِّ وإلى قدميّ.

الوجه المستدير لُموِّن الطَّعام حَدَّق فيَّ الآن. "غداؤه جاهز. ألن يتغدَّى اليوم أيضا؟ أم أنَّه يحيا دون غداء؟".

"يحيا دون غداء"، قلتُ، وأغمضتُ عينيه.

"إه!–إنَّه نائم، أليس كذلك؟".

"مع ملوك ومشيري الأرض"(٣٣) همهمتُ.

***

لن تكون هناك حاجة كبيرة للتوغّل أكثر في هـــذه القصـــة. الخيال وحدَه باستطاعته أن يثري الحكاية الهزيلة لمـــوت بـــارتلبي المسكين. ولكن، قبل مفارقة القارئ، لأقُلْ: إنَّه إذا كـــان هـــذا السرد القليل قد أثار اهتمامه على نحو كافٍ، إلى حدٍّ أنه أيقـــظ فضوله بشأن مَنْ كان بارتلبي وما كانت طريقة عيشـــه قبـــل أن يلتقيه السَّارد، أستطيع أن أجيب فقط بأنني أشاركه فضوله تماماً، ولكنني غير قادر أبداً على إشباعه. ومع ذلك أكاد لا أعرف مـــا إذا كان ينبغي عليَّ أن أبوح بنبأٍ صـــغير لإشـــاعةٍ وصـــلتْ إلى مسمعي بعد أشهر قليلة من موت النَّسَّاخ. لا أستطيع التكهن أبداً على أيِّ أساس قامت تلك الإشاعة، ومن ثَمَّ لا أستطيع الإخبـــار

(٣٣) "حِينَئِذٍ كُنْتُ نِمْتُ مُسْتَرِيحًا [١٤] مَعَ مُلُوكٍ وَمُشِيرِي الأَرْضِ، الَّذِينَ بَنَوْا أَهْرَامًا لأَنْفُسِهِمْ، [١٥] أَوْ مَعَ رُؤَسَاءَ لَهُمْ ذَهَبٌ، الْمَالِئِينَ بُيُوتَهُمْ فِضَّةً، [١٦]"، سِفْرُ أيوب، الإصحاح الثالث. الكتاب المقدّس الإلكتروني.

http://www.jctoday.com/bsoe/onlinebible/index.asp

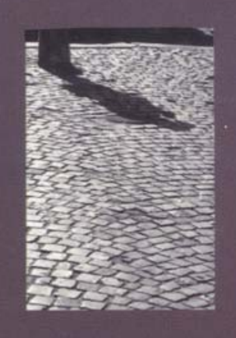
الآن بمدى صِحَّتها. ولكن، بقدر ما كانت هذه الإشاعة الغامضة ذات أهمِّيَّة موحية بالنسبة إليّ، مهما كانت محزنة، بقدر ما هي مهمة بالنِّسبة إلى الآخرين؛ ولذلك سأذكُرُها باختصار. كانت الإشاعة هذه: كان بارتلبي كاتباً تابعاً في مكتب الرَّسائل الميِّتة[٣٤] في واشنطن، حيث طُرِدَ منه فجأةً بسبب تغيير في الإدارة. عندما أُفكِّر في هذه الإشاعة فإنني أكاد لا أستطيع التعبير عمَّا يتملّكني من مشاعر. الرسائل الميِّتة! ألا يبدو ذلك شبيهاً بالبشر الميِّتين؟ تخيَّلوا إنساناً ميَّالاً بطبيعته وسوء طالعه إلى يأس شاحب، هل ثمَّة من عمل يمكنه أن يكون أكثر قدرة على مضاعفة يأسه من التَّعامل باستمرار مع تلك الرَّسائل الميِّتة وتصنيفها لإلقائها إلى اللَّهب؟ ذلك أنَّها تُحرَق سنويّاً بمقدار ما تحمله عربة.

أحياناً يجد الكاتب الشَّاحب في الورقة المطويَّة خاتماً ربما تفسَّختْ إصبعُهُ في القبر، أو ورقةً نقديَّةً أُرسِلتْ صَدَقَةً، لكنَّ مَنْ

(٣٤) افتتحت الخدمات البريدية الأمريكية مكتب الرسائل الميتة في عام ١٨٢٥ من أجل التعامل مع الرسائل التي لا تصل إلى المرسَل إليهم. وفي عام ٢٠٠٦ انتهت حوالي تسعين رسالة من هذا النوع إلى هذا المكتب، ولّما لم يتم تحديد مُلاكها الحقيقيين أُتلفَت حفاظا على خصوصية مرسليها، فيما استُبعِدتْ الأشياء المهمة والثمينة التي لا يمكن إعادتها لتُباع في مزاد علني. (المترجمة، بتصرف من موقع ويكيبيديا).

كانت ستُفرِّج همَّه لم يعد يأكل أو يجوع، أو طلباً للمغفرة لأولئك الذين ماتوا يائسين، أو أملاً لأولئك الذين ماتوا غيرَ آملـــين، أو أخباراً سارَّةً لأولئك الذين ماتوا مختنقين ببؤس كُلّيّ. في رحلتـــها من أجل إنجاز مهمَّاتها في الحياة تَغُذُّ هذه الرَّسائل ســيْرَها نحــو الموت.

آهٍ يا بارتلبي! آهٍ أيَّتُها الإنسانيَّة!



بارتلبي النَّسَّاخ

Bartleby the Scrivener

ردًا على إعلاني وقف شابٌ ساكناً ذات صباح عند عتبة مكتبي، وقد كان الباب مفتوحًا نظرًا لأن الوقت كان صيفاً. أستطيع تصوُّر ذلك المظهر الآن: نظيفاً بشكل شاحب، مهذباً بشكل يُرثى له، وبائساً على نحوٍ يتعذَّر شفاؤه! كان ذلك بارتلبي.

ISBN 978-9933-407-43-8



